

العالم لا ينتهي خلف

النافذة

(مجموعة قصص قصيرة)

صديق الحلو

"الراحة التي تشعر بها عند قراءة الأدب، ليس سببها أنك فهمت، بل أنك وجدت أخيراً من يفهمك".

جورج أرويل

ونحن هنا
حضور الراهن الواهي
وإذ نتقاسم الذكرى
وبعض العشق
والسنوات تزحف خلف جُحرٍ
لا تراه العينُ
والخطو الموقَّع بالأناشيد القديمة
فوق أرض الآن
يَزُجُرنا غُدُ

حضرنا ملؤنا أملً هنالك
لم نَجِدْنَا في صباح اليوم
كان الحفلُ محتفياً بنا
غبنا
وما نقص النبيذ
رقصوا على إيقاع أغنية كتبناها
بلا توقيعنا انتشرت..
رحلنا من هجير الكون
وانتبتت هياكلنا قصي الموج
لم تزل الظلال مكانها
جننا نطابقُها فما انطبقت بنا..
لا شيء يشبهها هنا
في هذه المدن الخراب
ولعلنا لا شيء يسمننا
سَبَبْنَا في سريرتنا موائدهم
على جوع السؤال المرّ،
فرشنا أسيرتنا ونمنا بال(قوى)
هل نحن الحقيقيون
في هذا المجاز الرخو
أم أن الحقيقة في مقابلنا
وقد صرنا بفرط ضلالنا نحن السراب؟
هيثم الفادني

يوم القصة العالمي ٢٠٢٠

شهادة الكاتب الأستاذ/ صديق الحلو عن القصة القصيرة وتجربته الكتابية

قصتي مع الكتابة والقصة القصيرة:

قبل أن أبدأ الدراسة النظامية كنت أحب رسم المناظر الطبيعية. آخذ قلم الرصاص ودفتر وأتسلق شجرة في قرية كتراية العظمة منتظرا إلهاما لم يجيء، وأرسم كل ما هو أمام ناظري: المراعي الخضراء على مد البصر والماشية، قطار السكة الحديد الذي يشق الفيافي في ريف كوستي المعطاء، أواسط السودان الوطن القارة. أمي فاطمة تحكي لي عن قصص الثورة المهدية التي لا تنتهي، كان جدي أحد قادتها. تحكي لي عن أبو زيد الهلالي ومخاضته عند النيل، وعن عنتر بن شداد وعبلة، وحسن الشاطر، وعن فاطمة السمحة والغول، أُلغاز وحكايات السحر الأفريقية. في المدرسة الأولية كانت هناك حصة القصة والتي كنا ننتظرها بتشوق، كنت أحفظ القصص عن ظهر قلب، وكان لأستاذي وخالي: إمام عبد النبي النور دور كبير وأساسي في حبي للغة العربية والقصص. وعندما دخلت المرحلة المتوسطة كنت أذهب إلى السينما وأشاهد الافلام، وأحضر في اليوم التالي ألخصها

وأحكيها للصغار في مثل عمري، والذين كانوا يتحلقون حولي في الليالي المقمرة وأنا أقص

عليهم قصة الفيلم؛ أشاهد الدهشة في عيونهم الصغيرة فأنبسط. وفي كوستي الأهلية

الوسطى كنت أدير الليالي الأدبية وأخرج صحيفة حائطية مع بعض الأصدقاء، هنا قرأت

الأعمال الكاملة لبدر شاكر السياب، ولمن تفرع الأجراس للأمريكي ارنست همنجواي.

قرأت أيضاً لإحسان عبد القدوس، ونجيب محفوظ.

قصتي مع الكتابة بدأت بإشادة معلمي بكتابتي للإنشاء واحرازي الدرجة الكاملة، وتميزي

في اللغة العربية والإملاء. كتبت للأصدقاء رسائلهم الغرامية للحبيبات، وكنت أرد عنهم

بعبارات تعجبهم. قرأت للأخ عيسى الحلو في وقت مبكر وأبهرتني عوالمه. أستاذي في

المرحلة الثانوية الشاعر الكبير عبدالله شابو كان له فضل علي، وكذلك الأستاذ شيخ الدين

عمر عثمان ومنار عبدالله وعبد الرحمن الحلو حيث قرأت كل مكتباتهم. كنت أحلم أن

أصير كاتباً؛ لذا كنت أوفر من مصروفي المدرسي لأشتري الكتب، وكنت أود أن أكتب

كتاباً أستعرضه في الفترينة الزجاجية بالمكتبة الوطنية لمصطفى صالح، وقد تحقق هذا بعد

عشرين عاماً.

كنا نتبادل الكتب مع الأصدقاء: عمر محمد أحمد، صلاح كوستي، وعصام خليل،
وحسين ربيح، ومحمد عبد الرحيم. ولا أنسى دور نزار قباني، ونازك الملائكة في تشكيل
وجداننا في تلك المرحلة.

وعندما كنت في الصف الثالث ثانوي، نشرت لي مجلة الإذاعة والتلفزيون أول قصة كتبها
بعنوان الجذور ١٩٧٨. فزت في العديد من مسابقات القصة القصيرة بالمركز الأول. في
تلك المدة قرأت للطيب صالح، وعبد الرحمن منيف، وسلوى بكر، ويحي حقي، ويوسف
إدريس، ونشرت مجموعتي القصصية الأولى "الفصول" بمدينة جدة بالسعودية، وعمري
آنذاك ثلاثون عاما، وتحوي أربعة وعشرين قصة قصيرة ١٩٨٥. ثم مجموعتي "غصة في
الحلق" وتحوي أربعة وثلاثين قصة، ثم كتابي "امرأة من الزمن الماضي" ويحوي خمسين
قصة قصيرة، كما احتوت مجموعتي "رهاب الحكايات" على أربع عشر قصة قصيرة،
ونشرت في العام ٢٠١٩.

أربعون عاما في كتابة القصة القصيرة، ١٢٢ قصة مطبوعة في كتب، وأخريات لم يطبعن
بعد.

كنت ولا زلت أحب القطط، والعصافير، والزهور، والعطور. وللأنتى مكان خاص في عالمي. كتبت عن الواقعية، والرمزية، والرومانسية، والتراث. كنت أتمنى أن أصير ممثلاً أو رساما تشكيميا، ولكن ذلك لم يحدث. ومن كتابة القصة القصيرة استوعبتني الصحافة لأنها الأقرب؛ فصرت مشرفا علي العديد من الملفات الثقافية بالصحف والمجلات السودانية. وشاركت في إنشاء روابط ثقافية وجمعيات إبداعية واتحادات للكتاب. ترجمت بعض قصصي للفرنسية والانجليزية. أصدقائي يقولون أنني غزير الإنتاج. وأنا ممتن جدا لنادي القصة السعودي ولصديقي خالد اليوسف حيث نشر لي كثيرا من القصص .

عندما تكون صغيرا ونحيفا ولا حول لك ولا قوة، والكبار يبدون آراء في كل ما يدور حولك، وعندما تريد أن تبدي رأيك يقمعونك، فتسكت وتلجأ للأوراق تبثها أحزانك وأفكارك وربما شوقك، من هنا تبدأ كتابة القصة القصيرة. إنه المخاض بعد معاناة. كان أجدادي رجال علم ودين، وكنت أعتقد أن الشاب ينجح في ما يعمله أسلافه، ولذلك لجأت للكتابة، وكان في كل مراحل عمري يكون أصدقائي من المبدعين، نلتقي مع بعضنا، نستفيد من الآراء والملاحظات، ننتقد بعضنا ونصل لتنتائج. أحب جدا السخرية، وكنت

أعتقد أن المبدع الحقيقي لا يكون بدينا! وأن الأغنياء لا يستطيعون الكتابة العميقة، ولكن

بمرور الأيام، صار كل شيء ممكناً.

خيارات الخضر

كان الخضر يقول: إن ثورة عاتية كريح عاصفة ستهب علي مقرن النيلين.. تقلع الجاك وزمرته وترمي بروحية في قاع السجن لتظل هناك قابعة تندب حظها العاثر، الخضر يحب لون البرتقال والمريخ، ويكره اللون الأخضر؛ لون الزاحفين للتلاشي. كان الخضر وسيما تحفه الوجاهة، وتشتهيه كل نبات الحي وصباياها، ولكنه اختار إيناس، سمراء تملأ العين والفؤاد والخاطر.

اختفى الخضر فجأة؛ لأن الجاك حط باله عليه، وجعل عيونه ترصد تحركاته. بعضهم يقول إن سبب اختفاء الخضر أنه قال لصديقه علي: إنني أحبك. رفض علي صداقته فرمى نفسه في النيل. وحده محمد خير يقول أن اقرباء إيناس الفارهة كمهرة وجدوه معها يغني لها أغاني الفنان عبد العزيز المبارك، فسحلوه حتي لا تجلب إيناس لهم العار .

والخضر كنسمة في أرض الوادي أودت به صراحته الي المجهول. آخر مرة شوهد الخضر وهو يلبس العراقي الخفيف والسروال وحذاء مركوب من جلد الأصلة، كان بحوزته سكين طويلة حادة الحواف يلبسها في ذراعه. أمه تقول إنه مسالم ولا يؤذي أحدا. وما حمله للمدية إلا أنه في الآونة الاخيرة شعر بالارتياب وعدم الأمان والخوف. الجاك لا يبالي بقتل

معارضيه.. والخضر كان مخالف شرس، يؤلف الأشعار المناهضة ويحب الحياة والنزق.
محمد خير يقول أن مثل الخضر لا يعيشون كثيرا لأنه مليء بالحنان والحب والشجن .
اختفى الخضر في ظروف غامضة، ولكن تحققت نبوءته في ثورة رائعة نالت إعجاب
الجميع وتوقيرهم، وتلاشي الجاك في العدم تتبعه روحية والطغمة النافذة. وحده محمد خير
بقي ليحكي هذه الحكاية.

خشونة في زمن ناعم

مرض خشونة الركبة يصيبك لأول مرة بالدوار. كنت تعتقد أنها آلام الروماتيزم والرطوبة، استيقظت على غير العادة مبكرا، بعد ليلة شتائية قارسة، آلام فظيعة.. إنه الموت لا محالة!. كانت أمك قد ماتت العام الماضي، تحتاجها الآن بشدة. كيف تتحمل الألم وتواجه الموت ويستعصي عليك المشي، بدأ شريط الذكريات يتسارع بالألوان، الحلو والمر، أناس نحس أينما يلتقون بك يحملون البؤس والشقاء وعدم الحظ، آخرون فيهم الحسن والجمال وتلك الروح الشغوفة وذاك الانسجام. عليك أن تكون يقظا دائما، ولا تدع الأوهام أن تتحقق وتسيطر عليك، يا لتلك الآلام الفظيعة! كأنما بتر جزء من جسدك. ما عاد الهاتف الجوال بكل مغرباته يلفت انتباهك، ولا أفلام الـ "إم بي سي أكشن" لم تلتطف عليك. الجدران عارية من الستائر، وكذلك الأرضية سحبت منها المفارش، كأنما اختك تريد أن تزيد عليك الوجع. الملاءة في السرير اتسخت ولا أحد ينظفها، مطلوب منك أن ترتب كل شيء، وتقف في صف الخبز والبنزين وتحضر الحليب الساخن كل مساء والبحث عن غاز مفقود. لا تحب الأكل كثيرا، قطعة برتقال وقليل من اللبن الزبادي، وربما كأس من الحليب، وقطعة بيض مسلوقة. تلفزيون صقر الجديان ما زال يتحدث عن المؤامرات التي لا تنتهي، والاقتصاد المنهار

وغلاء الأسعار. ابنك أرسل لك ثمن فاتورة الدواء، وأختك الأخرى تعدك بزيارة لأرض

الحرمين، وأكل وجبات من كوارع البقر والماشية.

رقم غريب يتصل بك. هل هو ملك الموت؟! قال لك إن أردت العلاج من الخشونة عليك

بزيت الزيتون، وعشب المحريب، والشاي الأخضر، وربما النعناع. عندما أردت أن ترد عليه

أففل الخط. صديقك علي سعد هو الآخر قال لك أنه يشكو من آلام الرطوبة رغم أنه صغير

السن. أهلك يريدون منك أن تشارك في التعازي وصلات الأفراح، ولكنها مضيعة للوقت.

كيف تكتب وتقرأ إن تابعت كل تلك المجاملات والتراهات وذاك الهراء؟، تكلفة العلاج

صارت جحيما في السودان، لا يطاق! مليونان ونصف المليون قيمة أربعة علاجات. صديقك

مدير قال: "ما عليك سادبرها."

٢٦ يناير ١٨٨٥ الخرطوم تحررت وسقط جوردون

"١"

تحتشد أمامي كل تلك الانتصارات الخالدة في أبا، وقدير، وشيكان، والأبيض. جوردون يرتعد من المفاجأة.. سرايا جوردون تبدو كالرهاب.. هناك في الأفق الشمالي. ونحن نسابق الزمن قبل وصول حملة الإنقاذ، كنا بالآلاف، الأنباء تتواتر عن حملتين لإنقاذه عبر النيل والصحراء. عندما تتأمل الصورة تجد فيها كثير من الخوف، الأمل والرجاء. دخان وغبار ومعارك ضارية وإيمان لا يتزعزع. كان هدفنا إحياء الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما، وتطهير البلاد من مفسد الحكام الأجانب. الليل يرمي بظلاله في الكون كله، ونحن كمعدية في النهر نتأرجح بين الشك واليقين، بين الحب والوفاء، كان معنا العبيد ود بدر، ومحمد ود مضوي، ومحمد البصير، والفكي محمد ودام حقين، أتى من الجزيرة اسلانج، وأحمد أبوضفيرة، شيخ الجموعية، وعبدالقادر ودام مريوم. تم حصار الخرطوم في عشرة أشهر، ثم حررناها بعد أن مات خلق كثير.

فاطمة هناك بعينيها العاشقتين في حي الحكمدارية تنتظر قدومي مع الجيش المهدي الفاتح. كنت وعدتها بالزواج قبل الهجرة، فاطمة الرقيقة كنسمة عابره تهيج مكامن الوجد فيّ، تلتمع

عينها وهي تحلم بالعيش معي في دار واحدة، وعندما أخبرتها بذهابي للجهاد صمتت وأجهشت بالبكاء، انفطر قلبي وأصبت باللوعة. الأمير أبو قرجة مهيبٌ كشهاب يمتشق سيفه البتار ويمتطي حصانه الأشهب، يسانده محمد الطيب البصير في محاصرة الخرطوم، ومدد من قوات النجومى، عسكر المهدي في أبو سعد بأمر درمان. النهارات أضحت مشحونة بالخوف والترقب، ظهرت آثار الحصار على الخرطوم، اضطرب الناس وهلعت قلوبهم. هوجمت حملة الإنقاذ بواسطة الأمير موسى ود حلو في أبو طليح والمتممة، تُرك جوردون وحده يجابه الموت الزؤام. جاءت المدينة وانهارت معنوياتها، جوردون بكبريائه وكامل زيه العسكري يطلع في سطوح القصر بالمنظار يصبو ناحية الشمال، أملا في أن يري وابورات حملة الإنقاذ الإنجليزية، تأكله الحسرة ويملؤه الحزن، اهتزت الثقة وراحت النضارة.

العبرة تملأ شوارع الخرطوم، النهارات تنفض غبارها والمصير الحتمي بسقوط الخرطوم تراه في الأعين التي تفيض بالحيرة، ارتعشت شفاه الناس من الجوع، واندلق ماء وجوههم. سلم فرج الله باشا الزين حامية أم درمان للمهدي، ما جعل معنويات جوردون في الحضيض، واغتم لذلك كثيرا، شرع السكان في اكل الكلاب والحمير والبغال، واستبدلن النسوة الذهب بربع ذرة، هزلت أجساد العساكر، وغارت منهم العيون، وفر آخرون لمعسكر المهدي في الجهة

الأخرى، هرباً من الموت، عيونهم نصف مغمضة، تهتز الأهداب ويندلع اللهب في الحشا، وتجف الأطراف، فتلقاهم الثوار بالإكرام والترحيب، وأمر المهدي الإمام بإطعام الجوعى، وسقيا العطشى، وذبحت الشياه تحت إشراف النجومي وأبو قرجة، فشبّع الناس وأمنوا بعد فرج. أطلقت مدافع المهدي الإمام ١٠٠ طلقة. ظن الأهالي أن المهدي انتصر على حملة الإنقاذ مما ثبت معنوياتهم. كانت معركة كسر عظم، بقاء أو موت، النصر أو الشهادة.

"٢"

المهدي بنقائه وبهائه وأمانته كان نزيها وعفيفا وهو يصدر وصاياه لجيش الثورة المتأهب لتحرير المدينة، إذا نصركم الله فالجوردون لا يُقتل، الفقيه محمد الأمين الضير لا يُقتل، كل من استسلم ورمي سلاحه لا تقتلوه، كل من أغلق باب بيته عليه لا تقتلوه، ثم كبر عليه السلام بسيفه في اتجاه الخرطوم إيذاناً ببدء الهجوم لتحرير عاصمة البلاد. حين بسط الليل ظلامه امتلأنا بالشوق الذي حوانا، لتحرير البلاد من الغاصب الدخيل، اختلجت دواخلنا وغمرنا الفرح الدافق بالحرية القادمة، استطاعت قوات الأمير أبو قرجة والأمير النجومي والأمير ود نوباوي احتلال الخرطوم في وقت وجيز، وفي خضم هذه اللحظات التي

عادة ما يصاحبها الكثير من الانفلات الثوري، قُتِلَ جوردون خلافا لأوامر المهدي الصريحة بالحفاظ على حياته، وحدثت بعض التجاوزات التي نهى عنها القائد.

الأرض تمتد أمامنا ممهدة، تتصاعد زخات الفرح وإشارات النصر، ركضاً سارت الحشود تحمل تعليمات المهدي بكل الانضباط، ونحاول قدر الإمكان أن نردع المتفلتين، وكنت أتضرع لله أن يحفظ فاطمة، وأن أجدها سليمة. المهدي وود النجمي كانا من الحرص بما كان على أرواح المدنيين، وعندما دخل المهدي المدينة ظافراً وجّه الأمير أحمد ود سليمان أمين بيت المال بإرجاع كل امرأة من أهل المدينة إلى أهلها أو أي قريب لها قبل غروب الشمس.

لم يخطر على بال أحد ما شهده من هول، كالسيل احتلت الحشود المدينة. كلما أتذكر فاطمة أنتفض، الكل يثب مذعوراً يطلب النجاة، اختلط الحابل بالنابل، وغاصت المدينة وسط الدموع والآهات، صراخ وبكاء، كانت لحظات رعب حقيقية!، ثم أصدر المهدي منشوره الشهير بعد تحرير الخرطوم: "إن النساء الخارجات من قفرة الخرطوم جميعاً قد أحبن أن يعطين لأزواجهن ولا يجوز لأحد من أصحابنا وأحبابنا أن يتزوج منهن، فذوات الأزواج يسلمن لأزواجهن، وكل من لا زوج لها تكون لدي أمين مأمون، شخص يمت لها بصلة القربى، ويجرى راحتهم، فالحذر من التزوج لأحد من نساء القفار المذكورة، صغيرة أو كبيرة،

ثيبا أو بكرا، ومن تزوج بواحدة من المذكورات بدون نظر حكم الله فهو الجاني على نفسه.
والسلام".

وسُلمت إلي فاطمة حيث كانت تقوم بسقي العطشى، وتضميد الجرحى في تلك اللحظات
الخاطفة، وجدتها يشوبها الحياء، أطبقت عينيها حبا، وقفت مذهولا لبرهة، لقد زلزل الفراق
كياننا.

المدينة المحررة مليئة بمشاعر الفرح.. الحزن.. الألم والخراب، لم تكن فاطمة مذعورة
بوجهها الجميل، تغطي الجثث تزيح الكآبة وتحلم بغد جميل، تحملت فاطمة لحظات غيابي
والحرمان. التقيتها بعد انجلاء المعركة، عيناها تفيضان حبا خالصا نقيًا، تعانقنا، ولم نفترق
حتى الموت. كان المهدي صائما في يوم الإثنين ٢٦ يناير، وكان الزحف بقيادة عبد الرحمن
النجمي من النيل الابيض، ومحمد عثمان أبو قرجة من ناحية النيل الأزرق، اهتزت الصورة،
اضطربت الأرض وغامت السماء، كارثة حقيقية لجنود جوردون وجيشه المحتل، الموت
والفجيعة والصقور تملأ سماء الخرطوم، وراياتنا المنتصرة تجوب المدينة، انتصرنا لشعبنا وأمتنا،
وصلى المهدي صلاة الشكر، وصلينا خلفه.

تحملت فاطمة لحظات غيابي والحرمان. التقيتها بعد انجلاء المعركة، عيناها تفيضان حبا خالصا نقيًا، تعانقنا، ولم نفترق حتى الموت. أبو قرجة من ناحية بري قتل من قادة جوردون: البهنساوي، علي آغا، والكرسني، والقباني، وموسى شوقي.

صخب وصراخ وعويل، قتل في ذلك اليوم المئات، بل الآلاف من عسكر أجنب أذاقونا الويلات لسنين طويلة. وعندما وصلت حملة الإنقاذ الإنجليزية منطقة الثمانيات على مشارف الحلفايا ناداهم الناس بأن الخرطوم قد حُرِّرت وسقط جوردون، فاستدار البابورين فرجعا من حيث أتيا.

جائحة كورونا الجائحة

أنفي تسيل.. والحلق يجف كأنما جمرة حارقة بداخله. أرقت عيناى وفارقنى النوم، أغوص في أحلام يقظة بعيدة، إنه الموت الأحمر لامحالة. أجهزة البث الفضائية تثير الرعب وتغذي الوهم، وأحاديث وزراء الصحة ورؤساء الدول تملؤني بالغثيان. المدن صارت خاوية كأشباح.. إنه الحظر. صديقي أحمد أُدخِل غرفة الإنعاش المركز إثر إصابته بفيروس كورونا. سقم ألمّ بنا! كان ناصر المحيا جميل القسمات، ويحلم بالسعادة مع نهى. نهى كالبدر ليلة تمامه، هام بها صباة وبادلته حبا بوجود. داهمه المرض اللعين كأنما سكين غرزت في قلوب معارفه، انكسرت تلك النظرات البريئة من يومها والدنيا أظلمت في عيوننا، أسبوعين وبعدها فارق الحياة. أخي هو الآخر يكره الصراير وأصواتها، والخفافيش والفئران التي تتقافز هنا وهناك دون خوف، والقطط التي تتناسل دون حياء. كسر الحظر ليأتي لنا بأغراض البيت، فعاد وهو يرتجف من الحمى، رغم أنه يلبس الكمامات والجوارب. صافرة الإسعاف وهي تدخل حينها أصابت الناس بالرعب. "إنه منزل الكورونا" قال الناس وازدادوا فرعاً، وعنا بعداً، ولحق أخي بأحمد.

خرجت الفئران من جحورها. قالت حبيبتى مزن أن الفئران لا تخرج من أجحارها إلا إذا كان هناك وباء! صار الناس يتطايرون من شارعنا، من بعيد يشيرون إليه، إنه الوباء الذي عم. قال عم أبو زيد وهو يحزم سرواله أنه من أعمال الناس الرجسة، حيث صاروا يمارسون الرذيلة علناً والفساد، والتجار يرفعون الأسعار على عينك يا تاجر، دون سبب. انتصب ابنه عبد الرحمن واقفاً وأردف: "كثير اللصوص والحرامية.. حتى المسؤولون سرقوا من الناس الصحة والعافية، وامتلأت أوداجهم المنتفخة، وبطونهم ممتلئة وأنفاسهم متلاحقة."

تذكرت صديقي الدكتور أمجد، مات في إنجلترا بالفيروس اللعين وهو يعالج مرضاه . أشادت به صحف الملكة العجوز، تصدر صفحاتها بالألوان. خبر مفجع يوجع القلب ويفطر الفؤاد والخاطر. عرف الآن الناس الموت، كل منا ينتظر دوره في الفناء. أنين المرضى يأتي خافتاً من المشفى المجاور، شبح الكارثة كانوا يعتقدونه بعيداً، وها هو يخيم على الوتين، وأقرب من جبل الوريد.

هل هربت الآمال والأحلام من على الأفق؟

جاء رمضان ومن بعده مطر الخريف، انقشعت الغمة قليلاً، تتابع الغيث معطاءً.

هل استوعب الكون الدرس؟

شربت كثيراً من الماء الدافئ، أكلت عدداً مهولاً من البرتقال والليمون والقريب فروت
واليوسف أفندي، ومضغت القرض. استعنت بالله الحي الدائم ومارست الرياضة صباح مساء
في حوش آل السيد، الواسع العريض. عاد المهاجرون وذهب الغرباء، انزاح الألم، غادر
الوجع. عشرات لمبات النيون أضيئت في داخلي كما النجوم في السماء الصافية، صرت
أجمعها الواحدة تلو الأخرى حتى صار الضوء باهراً، تقهقرت الكورونا وصوت وزير الصحة
الأجش.

وعادت الفضائيات تبشر بانزياح الكارثة.

حظر تجول.. كورونا تقفل الشوارع

الرمال على مد البصر في الريف الغربي لأم درمان. هدوء مشوب بالحذر، داهمني حظر التجول وأنا في الإسكان مربع ٦٠ المويلح. ذهبت إلى هناك لكي أنجز كرامة بليلة وبلح نشدانا للبركة، وأوزعها لسبعة أقسام للجيران الفقراء والمساكين بالسكن. كان توقيتنا سيئا أن أصاب بداء خشونة الركب وضيق في التنفس وضمور القلب وأمراضه، أُغلقت الكباري بين مدن العاصمة المثثة وأضحت كرش الفيل جزرا معزولة. قضيت هناك أسبوعا من الآلام المبرحة، وكثر الوصافون وأهل النصائح: كُل الكوارع، الصمغ العربي، القرض والقضيم. لم أجد كل ذلك. وكان لا بد من الرجوع إلى الكدرو حتى لا أجنن مويلحيا لمدة ثلاثة أسابيع. حظر التجول بسبب انفلونزا الفايروس التاجي كوفيد المستجد ١٩ ورمضان الكريم على الأبواب. ثلاثة أسابيع أعلنها وزير ثقافة حكومتنا الرشيدة فيصل محمد صالح، هاتفت صديقي أحمد علوان الذي أرسل أخ زوجته لي على جناح السرعة والموتر سيكل؛ لأنه تعذر إيجاد سيارة لعدم توفر البنزين. جاء حسن وكان يلبس كوفية فلسطينية (وين الملايين)، مع

الموتر حيث تعب للحصول على باغة صغيرة من البنزين، جله أخذوه هكذا من معارفهم.
ركبت خلف حسن الذي يرفرف مع الريح شعره.

أحمد علوان قال لي أنهم عانوا كثيرا للحصول على البنزين، تحرك حسن من أمبده دار
السلام، وصلني الإسكان المويلح في منتصف النهار، كان يسير بسرعة معتدلة رغم ذلك
طاح في رمال الوادي وقذفنا بعيدا، موت محقق نجونا منه بفضل الله، نمت معهم تلك
الليلة وسط كرم فياض. صباحا توجهنا لمدخل كبري شمبات ومنها العبور لبحري كأننا
نقطع حائط برلين لدولة أخرى، أقنع أحمد حرس الكبري بأن هذا الكهل معتل القلب ويريد
الذهاب لطبيبه المختص بالكدرو حيث يتابع مع البروفسير السموأل عبد العزيز، أصرنا على
الذهاب رغم حظر التجول بسبب فايروس كورونا القاتل المستجد.

والسودان كل بنيته هشة. تركه العهد البائد في موقف عصيب، لا خبز، ولا دواء، ولا بنزين.
خمسة ملايين أجرة السيارة نصف النقل (البوكس) الذي حمل لي سبعة كراسي من الخشب
الاسكراب.. صديقي أسامة في دبي يلح علي أن أعمل كرامة الليلة قبل رمضان حتى أفك
بها العوارض التي باضت وفرخت. وصارت العوارض كثيرة وعجيبة، ابن عمي عبد الرحمن
يستعجلني أن أعود سريعا وفي ظل هذه الظروف التعيسة التي يعيشها الوطن، ما علينا إلا

الصبر. المنظر لا يسر واللوحة تماما غائمة، بمعجزة خرجنا من الإسكان لسوق ليبيا وكأننا تحولنا من دولة لأخرى، كان أحمد علوان في غاية التأثر وكان حسن صامتا، والصادق أحضر ركشة لتقلنا لأول كبري شمبات.. ٧٠٠ جنيه أجره المشوار.. غلاء طاحن استغلالا للظروف. عواطف أم أولاد أحمد تدعو لنا بالتوفيق، ذهب معي أحمد علوان لمدخل كبري شمبات ناحية أمدرمان على أن نقطع الكبري مشيا على الأقدام، حيث يلتقينا على الطرف الآخر الأستاذ منصور زوج أختنا الكبرى. على اعتبار أننا مجازفين والوضع الهش لا يحتمل التسوية، والمشهد برمته مفتوح على كافة الاحتمالات، صرت لا أنام من ضيق النفس، ولا بد من مقابلة أخصائي. "المحيري ان المستوصفات كلها قافلة" أختنا الكبرى من ناحيتها تعتقد أن الأحوال تتردى يوما بعد يوم، عبد الرحمن في تحليله يرى أنه لا يمكن أن تستمر الأمور هكذا. أتت سيارة يقودها شباب أوصلوني آخر الكبري من الناحية المقابلة بعد أن سمح لنا الجنود بذلك، وما حصل بعد ذلك لا يخطر على بال: ركشة لبحري ٥٠ ج، شريحة لكبري الحلفايا ٥٠ ج، ركشة للريحان ٥٠ ج، ٨٥٠ ج عدا نقدا من جمهورية الخرطوم لجمهورية صقر الجديان، دون حساب كرسالة موية الصحة.

أغنية للحب

أحب صبيةً بتنورةٍ قصيرةٍ..

وأن تكون في عينيها عصافيرُ تزقزق..

غارقةً في النعاسِ

ومعطرةً بخُمرةٍ معتقةٍ

بشرتها سمراءُ، في لون الأبنوسِ

فتاةٌ يافعةٌ، كوردة صباح الخير

حينها كنحلةٍ تعصرُ الزهورَ

عطشى في بستانها القلقِ

صبيةٌ واثقةٌ من نضارتها..

تهفُّ الريحُ على نهديها النزقينِ في حقلِ القصبِ

تأخذنا العتمةُ والصمتُ إلى حيث ينمو يخضور الخصب

روحية

روحية.. كحبة قمح ندية، تأتيني باندفاع وحيوية، تنفرج شفتها التي بلون الشفق بالتحية،
فستانها البنفسجي المزين بفراشات ملونة، وجهها المغسول بالغسق، وحنينها الدفاق،
تحتضني نظراتها كمهر جامح.. فتهتز تحصيناتي. أندس خلف ساق شجرة في حدائق
أبريل.. تستهويني المغامرة، وملتقي فتدوب روحانا. تعرف روحية.. متى تغلق الباب ومتى
تفتح النافذة، ونما الشجن على نهر جارٍ. لم تعد تثيرني المرتفعات والانخفاضات، ولا الريح
التي ترفع التناير.. سفني لم تغادر النهر بأساليب روحية المدهشة وتصميمها لتجاوز
العقبات.

قررت أن ألتهم السمك ساخنا قبل أن يبرد. الخرطوم الآن في حالة انحطاط تام؛ كل شيء
وسخ، بدءًا بالسياسة وحتى الاقتصاد، ورائحة الفساد تزيد الكآبة، والناس كأنما على
رؤوسهم الطير، الجاك بأفعاله البائسة أوصلنا إلى هذا الجنون. كنت كلما أنظر لعيني روحية
تستحضرني ضحكها التي بلون الأرجوان وأسنانها التي كالبرد، فيعتدل مزاجي رغم تعكر

ليل الخرطوم، وزامر الحي الذي لا يطرب. "لابد من معجزة حتي يتغير الحال". قالت
روحية. والجاك كلما اعتبرناه راشدا عاد طفلا يساوم على الكُومشَن، ويغرق في ملذاته
الصغيرة، وأن أتجاوز كل ذلك بالرسم. أحس نبض القلب وتدفق الموسيقى، وروح روحية
تملؤني بالود، أرمم الذاكرة الحاضر منها والغائبة.

الجاك المتهور يتعامل بعقلية السوق، حيث الشك لا يؤدي لليقين. ورغم مرضه إلا أن
إيماءاته الوقحة وحركات جسده قادرة على إيصال حديثه دون فذلكة. ها هو يداري خيياته
بصرامة وحزم في عواصف لا تنتهي، محاولا ترميم حياته بغراميات متعددة، وكان دائما ما
يظن أنه على صواب والآخرين على خطأ. روحية تركض في دماي، تمتلئ أحاسيسي بها،
نشيد معا عشا للحنان والدفء، وتأتي اللمسات كخفقان الموج تترى، تثري أيامي
بإيقاعها، تركت على قلبي وشما فيه زهرة وفراشة.. قلت لها لنتزوج.. قالت لي بعد موت
الجاك الذي سيكون قريبا!

كورونا بلون الكروم

يبدو أن الصيف يتأهب للمكوث طويلا كمسافر وضع حقائب الترحال، ولا ينوي المغادرة. ضوء يسطع في سماء الخرطوم، وفوق أعمدتها الكهربائية. أعالي أشجار النخيل الملكي، والكاسيا، وأشجار السنط. شمس أفريقيا الحارقة تركزت كلها هنا، وانعكست على أدمغة الناس وتصرفاتهم. البعض ينكر وجود الفايروس القاتل، وآخرون لا يهتمون ويعتبرون أن الحظر نوع من السجن لا بد من التمرد عليه. يجوس الفلول بليل، ينسجون المحن والمؤامرات. الأصداء التي تطلقها منصات التواصل الاجتماعي، الانفجارات في كادوقلي، وكسلا، والجنيينة وبورتسودان. هنا الناس ينسون الموت ويحنون لبدايات التكوين الأولى، شمس النهار معلقة فوق الرؤوس وكثير من أسئلة إسحاق، والواد حسين، وحتى ضياء الدين، والطيب الخال وخامسهم الهندي. رغم آثار الجناة الواضحة إلا أنهم طلقاء، يا للهول، والأمور تترنح وتسير من السيئ إلى الأسوأ، كل شيء ينهار. عبدالله حمدوك نفسه بدأب منطقي حاول التغيير للأفضل، محمد حمدان ذاته يخرج الهواء الحار إلى العلن.. والبرهان في صمت القبور!

القحاة خائفون على ما أنجزوه من الضياع ويجتهدون في لجان المقاومة، يستهدون
بالنجوم، والليل تخرج منه أبخرة في ساحات الخرطوم التي قلت فيها الثرثرة، احتلتها أزمة
الكرونا والحظر، وراحت تؤرخ لحكاياتها التي لا تنتهي، كهربقات ابتلعها اليم. انطفأت
نجوم كثيرة في سماء الخرطوم. الأحاديث تدور حول نفسها كشرنقة والحوادث ناقصة
كقمر، أخوات نسبية في ذلك الصيف أسقطن حملهن، وبعضهن ولدن قبل أوانهن. ميتات
كثيرة تمت جراء الكرونا وعدم التزام الناس بالإرشادات الطبية، تسمع النواح يأتي من البعيد
تحت ضوء القمر. نهارا تبرز الشمس قاسية والنمو معطل، كثرت السرقات والاعتصابات
وعرشت الهموم وأناخت رحلها وازداد الغم. أصيب الناس بداء الامتعاض؛ لأن الكورونا
أضحت بلون الدم.

الضوء المنبثق في آخر الطريق يضيء ليل المسافر التعب. حالة من عدم الاطمئنان والخوف
سادت أيامنا، الحنين للأوطان القديمة والشموس الغاربة. حمدوك يمضي في غمرة حبه
للوطن وفي رحلاته الطويلة والشاقة يطلق رسالة الغفران، يكشف اللحظات عارية، والبرهان
يحطم الطوطم.

المتحكم في الجسد والروح معا، شباب الثورة الطموح يعرف ما يريد، يعالجون الحنين
المتقد ويعرفون أن ما مضى لن يعود، يمارسون الشم والتخيل ويخلقون من مزيج الأصوات
والروائح صورا جديدة، شفافة جارية، وملونة. يرتسم على محياهم هدوء غريب، مساحات
القلب تعانق أنجم السماء، تبكي أوراق شجر النيم في ليل أم درمان الطويل، تتماهى مع
أصوات الماشية والإبل في المويلح وهي تتناغي في حلقة الليل البهيم. والحياة تسير بين
الموت الأحمر ووهج الضوء الذي في آخر النفق. هل يعترف غازي بأنه كان مخدوعا
ومغرراً به؟. آنذاك كان العالم يرتج بوقع الكرونا التي في لون الكروم. بنفسجياً صار ليل
الكدرو، وأصبحت لشباب الثورة تجارب عدة سميكة وعذبة ومنسابة، كيفية اكتشاف
مخازن الدقيق، تهريب الخبز وتخزين الغاز، وكيفية توزيع البنزين الجازولين.
يفتح الشباب عيونهم ليروا أشباح غائمة. لجنة تفكيك وإزالة التمكين تكشف بعض
المستور، أرقام مهولة تشيب لها الولدان وأرقام تجعلك تتصبب عرقا، وغندور بذاكرة السمك
كالبربون لا يتذكر شيئا ولا ينسى شيئا، والشباب يرفضون التسكع وفي ليالي حلمهم القديم،
يحملون بالوظيفة وبزواج من فتيات يضجن بالشهوة ويمتلئن بالاخضرار. دعوا الحكى عن
الأزمة الراهنة ورائحة العشب المهيج للحزن والنسيان، ترك الشباب الهجرة والاعتراب

والرحيل إلى الأماكن البعيدة حيث لا يطالون نجوم السماء السحيقة. كابوس الفلول الذي أصابنا يروح ويحيى، يود السير مع كريات الدم داخل الأوردة كفايروس كورونا تماما ولكن هيهات، كثير من الفلول خرجوا متسللين يحملون الحقائب المحملة بالمال الحرام إلى تركيا، يعم ديار الفلول صمت واجف محاولين إعادة حكي الحكاية، لا عزاء أن الجماهير لفظتهم، وابتعدت منهم كما يتعد السليم من الأجر، غمرتهم أمواج التيه وفقدان البوصلة إلى الأبد، غمرت أرواحهم الطحالب وامتدت القواقع في فجوات الصخر. الكل يبحث عن ظل يقيه شر الهجير. الريح لا تززع كيان من يمتلى بالمبادئ، والمتوهمين لا يعرفون الطريق ولا يسترشدون بأحاسيس نبضهم الداخلي؛ لأنهم لا يعرفون الحب.. ضاعوا وأضاعوا معهم الوطن. صعب هو تصليح الأخطاء. الكنداكات كن يعرفن الهدف، كن كعازفات ماهرات يعزفن سمفونية الخلود والشفافة، يرقصون على صوت زخات الرصاص، ودخان البمبان يسد الأفق. أرسلن فيوضاتهن فنلن احترام العالم وشرف تمثيلهن للوطن، شاركن في صنع الحياة الوسيعة. وكان لا بد للأفاعي أن تتمطى من تحت الأغطية. والخرطوم ظامئة أبدا للحكايات ولا ترتوي، والسودان يحاول أن يحتوي الفوضى في تلك الأيام، ويعمق سيادة القانون وأن لا يؤخذ الناس بالشبهات. فض الاعتصام، وفاة منصور خالد، وعلي محمود حسنين، لجنة

إزالة التمكين، تعيين الولاية، تكوين المجلس التشريعي، المحكمة الدولية في لاهاي، حصار الكرونا، وتوفير الخبز والغاز الجازولين والبنزين، الدكتور الأصم، آلاء صلاح، ولاء البوشي، التعايشي، ومفرح. أيقونات الثورة الذين فقدناهم، لم نعتد الغياب. الناس هنا يحبون الحرية والحياة الجديدة، ولكنهم لا يخافون الموت، يعتبرونه كبرق العبادي، يشيل ويحط، يخطف، يعبر وهم لا يباليون. هم هناك يعرفون الوفاء والحب. صحيح أن سنوات الوحل قد غمرت قلوبهم بالطين لكنهم الآن قد تخلصوا من المخلوع، فهم مرتاحون ومعتدون بأنفسهم، ولديهم ثقة كبيرة في تجاوز المحن، يفهمون ولا يخافون. ذهبت بيوت الأشباح القديمة إلى غير رجعة، الآن تتواهب الآمال والأحلام في سماوات صافية كطيور ليلية عائدة إلى وكناتها.

رسالة ومضة الأخيرة

الصديق الطيب.. والرفيق الأعز..

وصلتني حروفك. كنت أغرق قبلها في يم الروتين القاتل، ملل مخيف، إحباط لا نهائي.. لا أدري كيف داهمني وعشش فيّ. فإذا أنا قمة اللامبالاة.. وقمة الإحساس بالأشياء. وهكذا تجتمع داخلي الأضداد وأتوه في دائرة من أكون.. وكيف؟ هناك.. حيث النيل الهادئ.. الماء والشجر.. العشب والخضرة.. كنت قد خرجت من صمتي.. استرسلت بارتياح غير عادي. أتكلم بشكل لم أعهده من قبل، ليس بي خوف من سوء الفهم الذي يعقد لساني بداخلي كثيرا.. كثيرا..

ما كنت أرحل إلى هناك، أتسلل داخلي، أبحث عن أيامي هناك.. عن تفاصيلها الصغيرة
جداً. لا أملها.. وأعود من داخلي حبلى بشوق يحرق.. ويتردد بداخلي قول: ليت أيامنا
دامت، وليتها تعود.. وتخفقني قناعة أنه لا جميل يعود. وأن اللحظة تذهب إلى غير رجعة..
ولكن.. يظل الصدى يتردد على جدار القلب، لا يموت أبداً.
معذرة.. وصلنتي حروفك.. كنت يومها في فناء الجامعة. معي بلالة وصديقات آخر.. أقسم
عرفتك قبل أن أفتحها، لم يفرح قلبي كما فرح يومها، لم أبتسم بحق كما ابتسمت يومها.
تعودت أن أقرأ خطاباتي في البيت وعندما أكون وحدي، يومها لم أستطع. بدأتها في
المحاضرة لم أكملها، فدموعي كان علي أن أمسحها وأن أبتلعها، الكل حولي.. غريب
حقاً. دائماً أبتلع حزني داخلي. وغريب أن تجمعنا نحن البشر اللحظات الحلوة ثم نفترق
عند أول بارقة حزن، ربما لأننا لا نريد أن نثقل من نحب بحزننا.. وربما أشياء أخرى.. انظر
يا سيدي كيف يقحم الحزن أنفه رغماً عنا وبدون أن نحس، ألهذا يا ترى أعشق كل
الكتابات التي تحمل بينها حزناً ومرارة.. بدأنا حديثاً كهذا أتذكر؟ تملؤني الرغبة لو تكون
حروفي هذه إعادة لكل شيء، وكل حديث وحدث.. لازلت أذكر أول يوم عرفتك فيه. هناك
في ربك في مجلس البلدية.. لا أدري لم أحسست أنني أكن لك ودًا واحترامًا.. كان ذلك

في أول مرة.. أما اللحظة هذه، فأنا قد تملكني هذا الود وتمكن مني، بعدما كنت أملكه.
لا أدري لماذا أحس بقولي هذا أنني أشد عن العرف، فقد تعلمنا جميعاً من جميع علاقاتنا
حتى من الأم، أننا إذا أحببنا فإن ذلك بالإحساس فقط.. ليس شرطاً أن يتفق الحس والقول
والفعل.. فالأم إذا أحببت فإنها تضرب وتنهر، والطفل إذا أحب لم يقل.. والمحـب،
والصديق...

لا أدري لم أكره هذا! وأحس بالاختناق بمشاعري إن لم أترجمها إلى فعل وقول. أكره أن
أقيد مشاعري داخلي، أكره أن أجعل قلبي سجناً، أعلم أنني ابنة أمي وأبي وأني إن أحببت
فلا يجب أن افصح، أنه لا يصح أن أعرف من لا تربطني به صلة الدم، بغض النظر عن إن
كنت أكن له ودًا. ولذلك حتى لا أختنق بالود فإنني أهمس لك ولكم جميعاً هناك أنني
أحببتكم كثيراً وأني أشتاق لكم كثيراً، ولولاكم لكانت رحلتنا سدى، وأني أحببتكم لله وفي
الله كما يقول أهلنا الطيبون.. ولا أتمنى سوى بقاء هذا الود يجمعنا حتى بلا لقاء. الجميع
هنا يذكرونك دائماً، وبالمناسبة ارتبط اسمك بي.. وعلى الرغم أنهم يمزحون إلا أنني أفخر
بذلك، ولا أغضب مع أنني لا أحب هذا النوع من المزاح وأراه ثقيلًا. فمن مصائب العلاقات

الطيبة والحب أنه أصبح موضوعًا للمزاح. وأنتظر منك حروفًا تبعث في أشياء أرتاح بها..
حروفًا في كل شيء عن الأرض، والريف، والحب، والإنسان، والسياسة، والدين، والفن.
بديآه.. لكم كنت محظوظة بمعرفتك وبالحديث إليك.. وبذكرياتي.

قام بروس.. مات سنبله

نشأ محمد في أحد أحياء الخرطوم الطرفية.. كان فتياً وقلبه مليء بالنوايا الحسنة والأمل.
تراجعت طباع محمد المتغترسة وحل محلها حذر مشوب بالاضطراب، وكان الراهن
كصندوق باندورا، هذا العام تعرفت عليه.. مبدع حقيقي أنيق ومهذب، يرسم اللوحات
ويكتب الروايات والقصص. أخبرني بصوته المبحوح أنه سيخرج من هذا البلد ولن يعود، لم
ينشغل خلال الفترة الأخيرة إلا بالتفكير في سفره والتحاقه بالجامعة في باريس، كل شيء
صار باهتا. محمد شاب وسيم وجهه ممزوج بالطيبة وتشوبه الكآبة ولديه حظ مع الفتيات
الجميلات، لولا آلام الظهر التي تنتابه، لا يستطيع أحد أن يرى ما يخبئ في قلبه من حب.
يقوم محمد من النوم متأخراً. الانهيار يسرع كسهم، دائماً ما يفكر في المستقبل الذي يبدو
قاتماً، قلق وحيرة يمتلكانه. هل يمكن أن تعود الثقة. انطباع متوجس يؤدي للارتباك، لا
توجد سيولة في البنوك وهو كخنفساء ضلت طريقها. أشد ما يضايقه زحمة المواصلات
وصفوف الرغيف وهذا الحزن العميق والحياة التعسة التي يعيشها، هل ستقوم الخرطوم من
كبوتها بعد أن انطفأت نظرتها المحبة للحياة؟. كان محمد يتسم، ولكن دموعه البائسة
تسيل دون انقطاع. رغم أن المدينة مليئة بالمنافقين، والسحرة، والشحاذين، والمغنين

المطاليق، والسياسيين المطاميس، والعطالي، والسكارى، والمداحين، وأبناء السبيل
ومجهولي الأبوين، والصعاليك، والرباطين، والبلطجية، والكذابين، والنساء السافرات. كان
محمد لا يضحك أبداً ويعشق كتابة القصص والشعر العميق، لم أقرأ له قصيدة في الغزل
وإن كان يعشق بوله. الفقير يحلم بالسعادة، ولكنها لا تطرق بابه مرتين. كان لصديقة
محمد ابتسامة باهرة غضة جميلة، مرهفة ومطبعة، التقاها في أحد معارض باريس وسرعان
ما تزوجا وأنجبا طفلة جميلة. ماتت والدته بالخرطوم عرف بعد مدة من الزمن وقرر أن يأخذ
أسرته ويعود إلى الخرطوم لكنهم منعه، كانت القاهرة محطته الأخيرة. برد اجتاحه لا يعرف
مصدره وبدأت نفسيته تتحطم، وفي لحظات صحو يحس كأنه نبات بروس. رحل محمد
بصمت تماماً كما عاش سنبله.

زنوبا تعبر للضفة الأخرى

زنوبا وأخواتها التعيسات يتصايحن بالشتائم دون أن يطرف لهن جفن، كن مثل تفاحات معطوبة لا شيء يمكنه إخفاء شرورهن المائسة تحت تنوراتهن التي بلون الورد. زينب منصور البائسة تشعل موقد النار وتشم عن ساعدها القوي والفصل خريف، أبقارها سارحة في المروج، شيعت قلبها ليسكن حقل الصقيع بعد أن طلقت زوجها طليقة بائنة، جعلته يحس كأنه مثل أولئك الأولاد الملتصقين على أعمدة الكهرباء، المتحلقين على النواصي مرتدين البارمودا بلون الكعك المحروق. ها هي تثثر عن العز الذي سوف يأتي، تحمل الهناء غيمة سائبة تودع الفقر والرهاب، صبغت شعرها بالحناء، كل شيء على ما يرام ما دام أنها ستأكل الدجاج المشوي والفاكهة، عندها سيأتي الخصب، وهي التي أخفت المحاريث، سيرت أبنائها القادمين مساحات الأرض والأبقار، تودع الظلمة الداكنة، سرحت بآمالها في الفضاء العريض، خبأت سبائك الذهب وحملت الأماني وعشب الليالي في طحالبها المشرببة إلى الأعالي، كان عليها دائما أن تنظف المراجل. وها هو الزمن الرائق لزينب منصور يطل، لا إثم يلاحقها، لا تعاني من شظف العيش أو البحث عن الرغيف، واللحظات صارت كالأناشيد. تروي لزوجها إبراهيم عن أيام المحاق، وكيف أنها بضربة

لازب انتصرت على زوجها السابق بعثيته، صعب المراس ناشف الرأس وقاس، وكيف أنها تجاوزت المصاعب والمحن والعقبات، أطلقت رغباتها الدفينة، وفتحت له مناطق لم تكن تُعرف. وها هي تستعين بإبراهيم على مواجهة الواقع، هي الآن في مرحلة الدهشة وكثير من التساؤلات تستشرف نبض الأيام القادمة. الصورة الشاخصة والصارخة تقول إنها ابتعدت عن المنغصات التي يعقبتها الحزن، كانت تتناول كسرة الخبز الجاف دون فرح، يلفها الملل والضحج تسترجع بحسرة كظيمة تلك الأيام. زينب منصور في الجنة الآن تسكن قصرًا مزخرفًا من السيراميك والمرمر، وتأكل في مائدة عريضة وعامرة بما لذ وطاب، وتشرب الماء البارد الزلال، وتعيش في سلام وإشباع. الفجر دائما يينغ من الظلام رغم الغيوم السوداء التي لا تستطيع أن تخفي وجه الشمس المنير، قصص زينب منصور البلهاء ورواياتها السمجة والسخيفة في آن يتلها إبراهيم بيروده، لكن زينب منصور ما كانت لتكثر، قذارة قدميه العاريتين صارت تشمئز منها، زينب منصور تحب النظام والتنظيم ودفء الجو البعيد عن الضوضاء، وفي محاولاتها البائسة لتصلحه أحبطت، على الرغم من أنها صارت لطيفة ومثيرة وتبحث عن الحرارة المفتقدة، إلا أن علاقاتهما سرعان ما تنهار؛ هشاشة مناوراتها وادعاءاتها وعدوانيتها والطريقة التي نالته بها، تعامله الحيواني وحسه القليل بالحياة

والفكاهة، مكتئبة وشاحبة أوصلها ذلك إلى الملل والجنون من جديد وخيبة الأمل والخواء.
خطأ زينب منصور القاتل أنها تسمع كلام الآخرين وتقفل التلفاز في وجه ضيوف زوجها،
وها هو إحساسها بالوحدة يتجدد، وللتغلب على الخواء كانت تبحث عن المتعة. إبراهيم
بنسائه الأربع وتجاهله يجزعها! أودى بها إلى أن تبدو في الخمسين، قرفانة ومشمئزة
ومغمورة في الوحل. جسدها ترهل وصار عبئا عليها، وجاءت الأوجاع لتكمل الضجر. راح
فضولها ذاك والرغبات في طريقها للتلاشي. أكثر ما يزعج إبراهيم حديثها بصيغة المذكر
وقهقهتها العالية، قاموسه المهترئ من الكلمات لم يجده، وهو يتأمل زينب منصور المحدقة
أمامه بعد أن امتص رحيقها كمنحلة، يرقد بجوارها وهي تداعب شعر رأسه بأصابعها، تنبثق
من ذاكرته لحظة أن زجرته، انتصب واقفا مؤكدا حبه لها، ويلهب وجهها بحرارة منبعثة من
أشواقه، توتر عينيه وتركيزها أثار قلقه، أبعدها عنه وراح يتلاشى وينزاح ويهبط الشعور
بالهناء. أن تسحبها بعد كل ثورة غضب ذلك ما توصل إليه إبراهيم، ومن الضروري أن
تستعمل كل حيلك الريفية لإبعاد أكاذيبها وغرورها وفضولها وتلك الحيل. يمكن بالمال أن
تمتلك مفاتيحها القصية، وعندما تبدو طيبة ومطبعة استخدم أجندتك وستصل لنتائج جيدة
وسريعة، لا تسأم.. استعمل خبرة السنوات وانتبه ألا تقع أسير الأكاذيب، وستثبت لك الأيام

أيكم أكثر أخلاقا. العنفوان الآن في أوجه والاشتهاء، وزينب منصور تريه بعض الصور التي تتمتع بذلك البذخ وتلك الوفرة اللذين لم تتعرف إليهما في طفولتها المفعمة بالحنظل الجاف واللوبيا الزنخ، أيام كانت فاتنة ممشوقة القوام، غامضة ومتحدية، قبل أن تنجب دسنة من السناجب! ها هي الآن بأردافها المهولة وخصرها الشاسع صارت الملابس لا تناسبها عاما بعد عام، الوساع ذلك ما كانت تشده وتضحك ملء فمها ضجرا وهي تزدرد طيات اللحم المشوي وتقضم عنب الشام، تأخر إبراهيم عن بيوته الأخرى، أحيانا لا تتحمل عجرفته، تشاكسه فيذهب غاضبا ولا يرجع لبيتها إلا بعد أن تأتيه باكية. الوغد دائما ما تجده دائخا من العمل، وفي اللحظة المواتية يأتيه زواره العديدين وتهرب الاشتهات من النافذة. التفاصيل تبدو ضرورية والهواجس ترفع درجة الفانتازيا، المناورات التي لا تنتهي. تحزن زينب منصور وتبدأ في الاعترافات المتعثرة.. سرطان الثدي، المصران والقرحة، والشعر الذي بدا خفيفا يتساقط، إنها لم تعد بحاجة للكلام، تفتح السكك لبدويها الملهوف وتقدم طبقا من المسرات اللاذعة، أيام كانت الريح تلهو بشعرها وتلصق ثيابها بجسدها لتبرز شكل نهديها الجميلين، تفتح نافذة مطبخها لترقب جارتها تحدثها وهي تداعب السلسل الذهب الذي أهدها لها بمناسبة زواجهم، تطل نظراتها لباحة واسعة ملأى بالأبقار والروث

والذباب الهائم. تعطي دروسا خصوصية.. لأبناء زوجها، أطفال صُفر ضامرون، مليئة بالمخاط والذباب أنوفهم، وعلى الغرف رائحة بول الماعز، الضأن يمارس الحب والدجاج. والدة إبراهيم تحيك شالا من الصوف لموسم الشتاء القادم لابنها، الغرف دون ستائر، وبنات زوجها ينشغلن بأعمال البيت ويسترقن النظر إليها منذ أن حطت عليهم كالكارثة، تحاول أن ترسل تأثيراتها الخاصة، ما يسيطر على تفكيرها محاولتها بقدر الإمكان التلاؤم مع هذه البيئة. مزاجها المتطرف حير إبراهيم، في حلمه يراها مهمومة عابسة، سريعة الغضب، ترتدي زيا مهلهلا، يأتيه طيف والده المتوفى يسأله لماذا اقترن بها دون مشورته، يصغي إليه وبيتسم، جسده الشائخ ملامحه التي لا تميز لها يهزه من كتفه، يراقبه بحذر، يعنفه. لحظات صمت مفاجأة. في البدء لم يستوعب الدلالات، صار يتأمل ويسأل، يهتم بالمحدد والمحسوب، يراقب زينب منصور بحذر، تهذيها ومفاجأتها التي لا تنتهي. مع زينب منصور تصعب معرفة الحقيقة، أرادت أن يفهمها ويشركها في قدر من المشاعر. انتهز فرصة سفرها لزيارة أمها، فتح دولابها وخزانها الداخلية، وجد مبتغاه. مخلفات الصندوق تكومت بداخلها رسائل وصور أحجبة وبخرات تعويذات مهمة، أشكال مختلفة، جزء من شعر رأسه، صرصور نافق وجراة حامل، ومنديله الأزرق، سن تمساح، جلد قنفذ وقرن غزال. بدأت

أيامه تصبح صحراوية قاحلة، تكشف له زيف الثمرة الفجة، أن تصير كهلا تمتلئ
بالهواجس: الزوجة الناشز، الرطوبة، وألم المفاصل والظهر، تكون بجوارها وأنت تمارس
الصمت. أسند رأسه على كفيه وأحس بخيبة أمل، نظر إلى كيفية نهايات الحب. دائما
يترهل.. تسقط أسنانه وتضممر قوته.. تخبو حرارته.. يذوب.. يتلاشى.. يتحطم البناء
المتخيل الجميل.

شتاء عام ٢٠٠٧م

سارة في هواك

يا لعبء هذا الآسي المستديم، كانت تقرقر مثل الفرح الأخضر، وبدأت الحكايات
تتهاوى، والنهر كبير والمجداف في وهن ريش العصافير. يقال عنها أشياء تشيب الرأس،
فضلة العبادلة، كم أنت قاتل وفتاك أيها الشوق، شلال الضياء المختبئ في ابتسامة سارة.
دونك يا شوق التباريح والبوح للصخر العنيد، سكن الجوع الخرافي الضلوع والخلايا،
وربطت المجاعة الطريق للطير والشجر والمسافة. المستقبل محفوف بالقواقع والقنوات
الآسنة والمياه الراكدة. الأيام تتوقف كثيرا لتبطن خديها بلمعان غريب، ثلاثون عاما من
الفوضى المتماسكة. هناك علاقة حميمة بين القمح والعصافير حين تفتح الأرض ذراعها
للمطر، وحيث تتناغى القماري وتنساب موسيقى التكوين. غدا يرقص الجميع فوق الزلازل،
شهدنا العجب العجاب في هذه الدنيا المليئة بالثقوب، هبط الجراد ليغافل الهناويل
والصفائح، والرجال والنساء، وامتص في شهقة واحدة كل رحيق الوطن الذي انسل جماله
من قلب العذاب الصخري الأصم. عينا سارة في جمال الشعر والترنيم كلما وقفت أمامي،
في رقة الحفيف المسائي الحنون وهي تبثني الشجن، في ابتسامتها يفتح الربيع المستحيل.
هل يأتي زمن بلوري يشاهد فيه كل إنسان ما يدور في داخل الآخر؟ متى يعود الغائب وتبرأ

جراح الشوق الماطر؟. رائحة درة مربط خيلنا تزورني في الأحلام. الفرق بين الرؤيا والكابوس شعرة من الحلم المستحيل، قالت نعم وخصلات شعرها تخترق النسيمات المسائية المحملة بروائح الحقول والصندل، غابت سارة ومن يومها والطيير يتحاشى حتى الماء في ساعات القيلولة. عند غيابها كان ضوء لمبات النيون يبدو كالحا وخفيفا ومرتعشا، طيفها يرتوي من أنفاس الليمون وحنية الأمهات، كان حديثها منذ البداية مشوبا بالتوتر غارقا في حمى الفراق والأشياء الناقصة، كان الحديث ينساب من فمه شلالا جريحا وعشبا محاصرة بالندى الرقاق، متى ستنقضين يا أيام المتاهة الشائهة ويستدير البرتقال من جديد؟. ملأ الحزن العيون وفاض بالحسرة، الجراح القديمة تكويها نار البعد والحرمان، النار في القلب والمقدر يدور في دائرة الأمنيات السرابية، تمشي فكأن كل الأشياء تمشي، كانت قارة من الجمال، حديثها مطر يتدفق من أهدابها، الحقيقة لا تجيء عارية وإنما وسط زهو العذاب. سارة محور العيون والكلمات والأفئدة، الطريق لا يفتحه التمني. كانت سارة تملأ الشوارع حيوية وطفولة عندما تضحك، تضحك فينسب زمن جديد، يفوح منها عطر ملموس، ابتسمت فتدفق البرتقال والذكريات، الطير الذي احترقنا من أجله يحترق من أجل غيرنا. الصداقة عمر ثانٍ للإنسان. لونها الكاكاوي والتل الرهيب عند المنحنى يفرش الكاكاو بساطه للشمس

والمطر، الأيام القادمة محملة بالمفاجآت. تذكرتها فارتعشت الظهيرة يومها وكان المطر يتشكل في الأفق الغربي، أخفت بحركة سريعة تل الزهور والأقمار والحلوى والحكايات.. يا لتفاهة اللعبة القديمة!. كانت الصحاري تنادي المطر، والشيء مع الدورة الدموية للعناصر يرتعش بالإمكان، الرياح الخفيفة تسرح شعر الشجر، والرغبة ترتعش دفقا في لون الشوق والموانئ. تحمحم خيول الرغبة الجامحة ويرتعش صلب النخيل، تحولت إلى بريق خافت بين ضلوع الفراق والشجن، كانت مثل وعد سحابات الجنوب والهناءات الضائعة. في البؤرة المظلمة من النفس تتكون الأحلام والكوابيس وبدايات الجنون، في خضم كل هذه الفوضى يمكن ترتيب العناصر الجامحة. شيء واحد متوفر في الخرطوم هو التواطؤ وسوء النية، يرفضون التغيير لأن مصالحهم تتضرر أثناء عملية التغيير، يرفضون التغيير لأن مصالحهم استمرار الظلام، وسارا بسمتها أقمار وأطيوار ومدارات جموحة، أين أنت يا زهو الأعالي الشاق والغصن الوحيد يرميه النسيم؟ ولكن الأشجار الضخمة تتحدى العاصفة، وسارة كطائر فقد في الريح درب الرجعة. الشجر ينمو ضعيفا في البداية، ولكن مع الأيام تذهب الجذور بعيدا في الأرض ويبدأ الشجر في مواجهة العاصفة، عباراتها في ليونة الغناء ودفء الحصاد، من لا يحب الحياة ينهار أمام ضرباتها. كان لديه مقدرة رهيبية على الكذب

والافتراء وتشويه الحقيقة، دائما للنهر مجرى واحد، الورود والأشواك يثمران في غصن واحد،
ليس هناك أوضح من الصدق، ازدهرت حديقتها واخضر العشب، خريف السودان حار هذه
الأيام.

أم القرى/ يوليو ٢٠٢٠م

العالم لا ينتهي خلف النافذة

قال صديقي محمد أبونا: ما أريده الآن هو امرأة بحجم وكثافة الغليان الذي بداخلي. كان محمد يكتب الشعر، قصائده مصابة بالكمد والقسوة على الذات مع نغمة سادية عنيفة. الليل يجثم على سماء سوبا بكل حضوره الثقيل. سنوات وراء سنوات ومحمد ينتظر حتى أصاب الانتظار الروح والحس بالعطب.

كان محمد يقول: هناك من يبالي في تقديره لذاته ويتمركز حولها ثم لا يبالي بالآخرين، وهناك من هو عدمي النزعة لا يبالي بذاته ولا بالآخرين، الأمور كلها تستوي عنده في العدمية واللا جدوى. أقول له: في زمن الغيبوبة والذهول ورود ذبلت وأشجار جفت عيدانها ونحن ما بين النمو والذبول نحيا.

قالت فدوى لمحمد: شتلوك وين يا العنب.. في الأرض الخضراء؟ لا أبدا لا.

كانت كوردة قُطفت منذ ليال عديدة ودُست وسط كتاب قديم.

يلد ضجيج المدن الحلم والأطفال والورود، القلب لا يتوقد إلا في الألم، كل المدن تحلم أحلاما لها أجنحة، وكان محمد الوحيد الذي لا يعرف الحدود بين الحلم والصحو. الريح غير مواتييه في هذا الزمن الشاحب، ترتبط المصائر بأسبابها الخفية التي لا تعرفها إلا

السماء. قال محمد: شعرت بحبة أرز تنمو بداخلها فغمرتها نشوة فائقة. كانت تتكون مثل

قصيدة من الشعر، كانت جاذبيتها سحر تردده الأغاني وتتجمل به الحقائق والبساتين،

كانت كغيمة تمتلئ بكل الاحتمالات.

قلت لمحمد: عندما تشتعل حرائق جنون الرغبة تعوي الذئب. ما أقسى ألا تجد أحدا

تتحدث إليه، أخرج من ذاتي كزهرة دوار الشمس باتجاه الآخرين، ولكنهم لا يكثرثون. العالم

لا ينتهي خلف النافذة.

قالت فدوى: اشتعلت النيران لتذيب الجليد الذي يسجن كلامنا في صقيع عزلته، هناك

خطر متمثل في الكلام وفي ما تحت الكلام وما فوق الكلام، وفي الصمت، هذا الليل

عميق كالسماء، رقيق كالأحباء وقلوب العاشقين، الوردة سريعة الذبول وضوء الشمعة إلى

الأفول.

قال محمد أبونا: لأن الرؤيا برق خاطف نكتب الشعر؛ علنا نطيل من عمر اللحظة. كانت

فدوى جميلة كالحب المستحيل.

اختفى الفتى محمد وضاع في ظلمة الدروب الوعرة التي يعرفها المحبون حينما يصدمون،

فدوى طريقتهما الوحيدة لاستمرار العشق القديم فتح الجراحات وجعلها نازفة غير قابلة لأن

تندمل.

الدهشة الأولى

من يتذكر سفره الأول؟. مثل العطر كان جمالها سحرا لا يوصف: صفاء.

يتوهج الفم بالابتسامة فيعبر الوجه عن الود وصلا لا ينقطع، وعند النوم كانت تجيئه أرقاً طويلاً كالليل، كان يراها أمجد فيصهل ويصخب، تطلع الأمواج وتنزل فيتأرجح أفقه، وتكون همته وقت ذاك عالية. قرأ في عيني صفاء إجابات الأسئلة وحيرة العالم وثورة السودان في ديسمبر، وعندما يتلاقى الخوف والشوق وتنتفتح المصادفات المواتية يهدأ التوتر الفرح. قال لها أمجد: لماذا تنجذب الفراشة للورد؟

قالت له صفاء: يا السايق الفيات.. قوم بي واخذ سنده بالدرب التحت..

أمجد، محمد خلف، وأحمد.. كانت تتصارع فيهم الأزمنة، أزمنة ما قبل التحضر مع التمرد والعصيان، في حضور صفاء البهي تخلت الفراشات عن التحليق، وكفت العصافير عن الغناء، كانت أمام الغزل الجريء ذي الرحيق تندفق كالريح ما بين الريف والبندر، تتأوه الأرض العطشى عند نزول المطر، وأمجد يستعيد من الجسد حرارة الانفعال، كلما يلتقيها ينظر إليها بنظرات الوله.

تلك النظرات الحارة المتأججة بأهات العشق، انتهى زمن الرسائل المعطرة والمناديل ذات القلب الذي يخترقه سهم وحيد، وصارت الرسائل الآن (sms) باردة ومعتقة. أمجد كان وسيما جدا كالحلم.. يكتب الشعر، ويعشق كل البنات، ويتصدر المظاهرات التي تهتف بإسقاط النظام في الخرطوم.

كان الزواحف يديرون الوطن بعقلية اتحاد الطلبة، والجاك يطلق عنتريات لا تنتهي؛ لذلك أصابهم الفشل الذريع، إنهم ضفادع يختبئون داخل الأرض ويملؤون الليل بالضجيج. كان أمجد يحلم بالحرية ويلقي الشعر في الليالي المقمرة، داهمه العسوس وفتشوا غرفة نومه، بعثروا خلايا ذاكرته، جنات أحلامه.

بحثوا تحت الوسائد وفي الدواليب المغلقة، جمعوا دواوين درويش وأمل دنقل وروايات بركة ساكن وحمور وقصص محمد خير وأحرقوها.. انغرس شيء كالأسي لضياع العمر الجميل، عندما يضرب الحقد في القلب المقهور تنمو أشجار المقت زهورا سوداء. قال أحمد لمحمد خلف: عندما تنضج تعرف كيف تصطاد لحظات الحياة الممتلئة بالحرارة.

أريج الثورة

سقط الشفيح شهيدا بطلق ناري أمام القيادة العامة.. كان يسير بين جمهورية النفق وضاحية كولومبيا، ينظم الصفوف ويبنى التروس. بكته الأسفير، والفتيات الجميلات، وأصدقائه هيثم وشهير وعلي، كان الشفيح يقول لي إنهن يعقدن الأمور، وكان غير راضٍ عن أريج، على الرغم من أنه يقول إن ذاكرتي تمتلئ بها كما تمتلئ الشمس بضوئها، جاءت كالمطر، التقى بها كالريح وصار الكون أكثر سحرا ولطفا وجمالا.

قال له هيثم: ماذا أحببت فيها؟

رد الشفيح: لكم أحببت الشرود الذي ينطبع حول عينيها.. وذاك الحور.

قال شهير وهم جلوس في ساحة القيادة يرتشفون الشاي بالنعناع: متى تتحرر أحلامنا من وقف التنفيذ إلى أحداث حية وفاعلة.

قال علي: نريد من يشاركنا أحلامنا.

وكان الشفيح يعتقد أن الشتاء والبنات فيهم قسوة لا حد لها.

قال هيثم: لماذا القصص دائما تحكي عن الماضي؟

وكانت أريج تستدير حول نفسها كبرتقالة، وبرحيق أشواقها تفيض.

قال الشفيح: لقد علمتني أن أحب الحب ذاته ولذاته. وكانت عينيه تومضان بأشواق آمال
لن تتحقق أبدا.

كان ليل الخرطوم حينها غامقا مثل شجرة مورقة بالأرق، والشباب يمثلون حركات الحب
والأشواق والخبجل، "عندك حط ما عندك شيل". كيف يكون الحب؟.

تفرقوا مثل شعاع الشمس وبقيت مثل الليل وحدي، يا أنت يا أناي، أنا المحب
والمحبيب.. كتب علي على جدران جمهورية النفق، ورسم رسمة.

قال الشفيح: هل يمكن أن نحب الوطن وأريج في وقت واحد؟
وأريج كانت تمارس مناورات الوصال والصد، هي صبية ناضجة إلا أن وعيها كان فارغا.
سمعنا باستشهاد الشفيح.. كأن على رؤوسنا الطير، كان يهرب من حصار الأسئلة التي
تقذفها الحياة في وجهه.

قال علي: إن الحب ورطة، كأنه شيد من ضجيج الحياة الفوار.
أحبوا ساحة القيادة كحب الشراع للمركب والريح، كانوا يخبثون الثورة في عيونهم حينما
ينامون، العالم ليس منصفًا. كانت الثورة في غيوم نوم الذاكرة وفي صحو نهارات الصيف،
العالم لا يكون جميلا دون الشفيح، عندما تتحقق الذات عبر الانتصار عندها تكون ملامح

الأيام جميلة.. تتجههم مدعية مظهر سن النضوج، وها نحن نعرف أنفسنا على مرآة أشواقنا
وذكريات ماضينا، كانت الذكرى تثير قلب الشفيح، أشتات من الماضي عاشها أضحت
هالات من السعد.

في قلب الأحداث تتسع العيون بالدهشة وفي النوم تمتلئ بالأحلام، وانتصرنا في أبريل،
اشرأبت الأعناق ودقت القلوب العامرة بالوجد الكشفي واستجلاء الرؤيا. أريج كانت غيمة
حبلى بالندى وبشفيح، متلفحة بذكريات مدفونة في ضوء النهارات المنطفئة، والليالي
المتوشحة بالسواد، انتهت الأيام التي كانت فيها لاهية تدور كالنحل بين كل الورود.

ملائكة يحيى تصعد للسماء

يحيى محمد عاصم أربعاً من سنوات الحب والريد، لديه من الأبناء ديس وأول، ديس يدرس

في المدرسة. ومن البنات ديدي. روب وراب.. لا يراهم إلا هو. الرغبات والأشواق غير

محددة الملامح، والعطر وحده يوقظ الذكريات المنسية. أتوا من الريف إلى المدينة يحملون

مخاوفهم ودهشتهم، وحقائبهم الصغيرة وأشواقهم ويبحثون عن مأوى. يقول يحيى إن الآتي

غامض مثل الحزن، والفرح يأتي بوفرة مثل الضوء، والكدر ضاجة بشبابها فهي النور

الجيلاني، وعبدالقادر الكدرو، ومحطة السكة الحديد والمسلخ.

قال يحيى عن أخيه أحمد: أمام رفضه ماتت كل الأشياء الصغيرة الجميلة التي تمثل جسراً

للتواصل. قالت لبابة والدة يحيى: كانت الكدرو غانية مليئة بالمساحيق، قاسية القلب ولا

مبالية، كانت تنظر بوله لوجهه الصغير، وكانت عيناه تبرقان بظماً الصحاري وحينها للماء

والمطر، وكان يحيى مربوطاً بالمصادفات التي لا ترى.

روب وديدي ينامان تحت سرير الخالة أماني في غرفتها الفارغة، ديس كسر الإطار وطار.

يأكلون الكيك ويضحكون وهم على رأس عمارة الجيران أو الزقاق، أو يلعبان معا تحت

السرير وفي الحديقة، يتحدثون بالهاتف الجوال، نتخاطب معهم، قال يحيى وهم جلوس

على الشنطة الحديد، يضحك يحيى وهو يعالج أشواق الحب الموشح بطيوف الألفة والريد والنزق. كانت الألفة والمودة بينهما تنمو كنباتات الظل عند أسرة ثرية، رغم أن الراهن الآن ملبد بسحب التناقضات، وبما أن الريح تأتي على غير انتظار، كانت الأيام باهتة كحائط قديم، حيث بلل القمر فراش يحيى الوثير. قال يحيى: إنه يلعب بهم ومعهم ويذهبون للروضة والمدرسة معا. ويكون الأنس في أحلى مداها، تحس في الدم رفيف الأجنحة وينداح الريد مثل موجه على الرصيف، ويعبر الحب كالحياة في امتلائها. المسوخ أحيانا لا تصنع إلا مسوخا أخرى، والألم شعور والشعور لا يحتاج إلى تبرير.

قال ديس لأول: لا تحدثني عن إيقاف التفكير فيها ولم تزل صورها على هاتفك الجوال. بكى أول من الحسرة، لم تسعفه كبرياؤه عن التنازل، تدلى الحزن من السقف لبرهة، سكت يحيى ورفض التعليق عن أحوال أسرته غير المرئية للغرباء. تفرق الأبناء والبنات ديس وأول وديدي وروب وصعدوا للسماء.

الاشتعال

هذه البلدة بلا ذاكرة، نبت فيها أحمد توش هكذا فجأة، يسير وحده.. يعيش وحده..
يضحك ويغني. عندما كان صغيرا كان يقتل الحرباء والجراد، ويبول على السحالي بعد أن
يدهسها حتى الموت، تقوم من عثرتها كأنها مدوخة من نعاس. أحمد توش من أصول
يمنية، جدته من غرب إفريقيا وأمه نيلية كقطة من الزيتون المدهون، ولد أحمد توش بشعر
مسدل وعينين كبيرتين وأنف مستقيم، نشأ وترعرع في كل بيوت الحلة، على وجهه مسحة
من الأسي، ويسيل من فمه اللعاب. بقميصه الشفاف وقدميه الحافيتين يساعد هذا في
البناء، ويجلب الماء لتلك، والحطب لأخرى، تجده في دكان صابر وفي قهوة حامد
وطاحونة بابكر في نفس الوقت، ضحكته الرنانة تشعر الناس بالأمان. كبر أحمد توش
واتسعت وسامته وازدادت، يدخل البيوت في أي وقت شاء، ما زاد من خوف الرجال
وحرصهم، وارتباك الصبايا لحسنه الدفاق، بضحكته المذهلة جمد في عروقهن الدم. كن
يقلن: آه لو أنه استحم وتعطر. خاطب فيهن شيئا دافئا وغامضا يسري في الأعصاب
كالمسّ. والأماسي باردة وكثيية، تمر بطيئة ومعتمة. نفس الخال الذي في خد أحمد توش
وجد في طفل ود رحمة، الشعر المسدل الغزير في بنت عمر، والإصبع السادس في تيمان

فضل. في أحمد توش شيء كالمغناطيس يجذب الحسان إليه، الصغار منهم، الشابات والأرامل، صفية الآتية من المدينة لزيارة خالتها في القرية شهقت عندما رأته لأول مرة، كاد يغمى عليها كأنما سكين بارد طعن منها الفؤاد والخاطر، وأحمد توش في لهوه يضحك، والدنيا أهازيج لا تنتهي. غشيم ومبروك، وهالة من الضوء تكسو محياه، غرقان ودرويش، تتدلي أشياؤه كلها، يعرف أسرار البلدة، كل شاردة وواردة، والناس مستغرقون في أعمالهم. أبو القاسم قال: إن أحمد توش هذا خطر على بناتنا وهو يدعي المسكنة. أقره عبدالله وأردف أن أحمد توش عندما يدخل بيتا تعاف المرأة زوجها، وتنكر العروس بعلمها، وتتململ الفتيات في خدورهن، تنتشي أحلامهن فيعانقن الوسائد في وله. شيء مثل النسغ يدب كالهسيس ويشعل الحرائق في كافة الاتجاهات. ذاكرة البلد لا تتوقف مثل ذاكرة السمك والذباب، أحمد توش كالنحلة واسع النشاط ومتوفر، يقدمون له الطعام والحنان والحب، لا أحد يعرف أصله، قيل إنه من أصول يمنية أو من بلاد شنقيط، جدته من الجبال وأمه كأبنوسة تشق عنان السماء، وتغرق الحكايات في الظلال، والبلدة لا ذاكرة لها. نعجة حمد الله ولدت حملا بستة أرجل، بشعر مسدل وعينين كبيرتين، فزع الناس خاصة وأن مطر خريف ذاك العام استعصى على الهطول، الأسعار ارتفعت وعم الغلاء والجفاء والجنون،

البعض يعتبره صالحا، وآخرون يظنونه مجنونا، يغلي الدم في عروقهم ويفور، وهم في أماكن عملهم البعيدة. كبر شبيها توش، تعادلت الضلالات والصلاح، توش يساعد النساء على الإنجاب، يتفل لهن في الماء، ويمسح بطونهن باللبن الحليب ويدعو لهن بالبركة، يعزم على الخيط الحرير، تربطه المصابة بالصداع فتشفى. يتركه الرجال في الحلة وعندما يذهبون للسوق على بعد عشرين ميلا يجدونه هناك، حافي القدمين تحيطه هالة من الجمال وذاك الألق، وعلى رأسه كتلة من الشعر وقميص شفاف يظهر أشياءه كلها. تتحسر نساء المدينة على هذا الجمال المهدر كجوهرة في وحل، توش مسخ على النساء رجالهن وعلى الرجال حياتهم. في مرة قلب إحداهن على قفاها مما جعل كلبة موسى تنبح، ونعجة أزرق تولي هاربة، قال له البصير ألا يكررها وقد فعل. هذه البلدة بلا ذاكرة، قال عباس: إن أحمد توش جاء منذ خمسين عاما نزل البلدة، في نقاء القمح كان لونه، يركب جملا أبيض، وفي ثياب ناصعة، التقى السرة وأكرمته، كان تاجرا وشابا وسيما يتاجر في سن الفيل، الخرز والسوميت وخشب الصندل بين القرى والأرياف. بعد أن قضى ثلاثة أيام كانوا يخالونه سيغادر، ولكنه مكث عندها عشرين عاما إلى أن توفت السرة، قبل أن تموت أوصته أن يدفن معها الجرة المعلقة في سقف الغرفة، نسي أحمد ذلك يوم أن ماتت السرة، وقبل دفنها تذكر الوصية

فأوقف الناس من الدفن حتى يعود، ركض ليأتي بالجرة، وقبل وصوله إليهم تعثر وسقط
وانكسرت الجرة، كأنما غمة انزاحت من صدره، أفاق ووجد وسط الجرة ورقة مطبقة بعناية،
ورأس فأر، ومخلب قنفذ، وشعر أسد، وقطعة جبن، وريش نعام. يومها غادر أحمد توش إلى
أهله في أقاصي الشمال دون رجعة، ترك ذرية أو لم يترك في البلدة التي لا ذاكرة لها.. لا
أحد يدري، ولكنه تركها ممحونة تبغي رحمة الله، تدحرجت في أعماقها بقايا الأنجم
الجميلة التي تكسرت على ظلام الليل الذي تضاعف سواده.

جوهرة في وحل

عوض عكام كأبو الدرداق ينوء بحمل مثقل، يحلم بالقمرا. يحاول أن يخرجني من هذا البلاء المنهك، أشواك تنهش قلبي.. سكاكين وخناجر.. حاولت الخروج من هذا الضيق الذي يشقيني، ازداد خوفي وتمدد بعد أن هاتفني عوض عكام، قال لي في صباح يوم جمعة حزين: سأتناول الإفطار معك جهز الفول المصلح. دار راسي وملأني الهواجس، تبعثرت جوانحي فوق أرصفة الخرطوم وأزقتها. لا يمكن أن يأتي عوض عكام هكذا فجأة، بشروحه الكثيرة، وملامحة القزمة، مزاجه المتعكر، وعينييه الصغيرين كعيني صقر، سيكون معي وليس بيننا كثير ود، عوض عكام بألغازه الغامضة وتيهه لسنوات مع زينب منصور وبناتها الفارحات، أناقته وكبرياؤه المتعب. لقد أقنعه الأوغاد أن يتسرب إلي، يحكي إلي سقطاتهم، ولكي أنقذ نفسي من برائن قبضتهم علي أن أطلقها علي حسب قوله وأستريح. والد عوض عكام كان يعمل مع والدي ووالد سلوى في مزارعه العديدة وجراراته وتلك الأبقار، ماذا سيقول عوض عكام هذا الكائن البائس الذي دخل عش الدبابير طائعا، وأنا كقنفذ جائع غلبني التخمين، لا بد أن المهمة قدرة وإلا ما اختاروا لها عوض عكام. أستجدي دموعي التي سألت حتى العنق، يأبى حزني أن يغسل بماء العينين. كنت أوافق عوض عكام بإيماءة

من رأسي كتلميذ صغير لم يفك الحرف بعد، هذا الكائن الغريب كفأر المسيد، كالأعمى
وافقت على كل ما يريد، هذا الجرذ هل يقودني للنجاة؟ وكأنني أحس بأني أغرق في ماء
آسن، وجدت أشباح تعقبها أشباح، ودخان كثيف وظلال، عوض عكام ومن خلفه
المتربصين، المندسين الخونة، ماذا يريدون مني وقد صرت كباب مخلوع ومركون في زاوية
معتمة؟، تمزقت تلافيف قلبي ونياطه لهذه المؤامرة الدنسة، حيكت تفاصيلها بليل في أقبية
الكهان والسحرة، وعوض عكام الماهر يدفع بي إلى التهلكة. قدم لي شراب التفاح البارد،
تعلو وجهه ابتسامة بريئة، عبيد أخ سلوى منتفخ، كعبوب ينفخ الكير المشتعلة، ناره من
روث البهائم يطرق السكاكين والخناجر، وجهه كحذاء مبلول في الوحل، هو من أرسل
عوض عكام؛ لكي تنفك سلوى التي كانت كشر مستطير تشعل النار في كل الاتجاهات.
عندما قابلت عبيد في مناسبة حاشدة تجاهلني الوغد، لوى وجهه واكفهر، بدأ لي الأمر
مربكا، كان يكفيني ما أنا غارق فيه من وحل فزاد الطين بلة، قابلت أخاه الأكبر الباهت
الذي ضاعت ملامحه، أمسكت قلبي خشية أن ينزلق من مكانه. كالرمال المتحركة صارت
أيامي تنهار، قال عوض عكام عليك أن تفك سراحها لتعيش حياتك، كان يلعب بأعصابي
كقطع النرد، وتملكتني مخاوف ووساوس لا تنتهي يا للأسى، ماذا سيكون مصير الزغب

الصغار إن رميتي والدتهم في المحكمة، ماذا دهى عوض عكام السمج بهذا المنطق
المعوج.. يا للوجع!، نحن في محنة، الآن وأنا أسير لحتفي، الحبل يلتف حول عنقي
بإحكام، فارق الإيمان عوض عكام، وصرت غير قادر على المشي، تصلبت مني المفاصل
والركب، كيف الصحو من هذا الدمار؟. أن ينفجر تحتك زلزال وأنت تعرف بعد عمر طويل
تفاهة الناس وزيفهم وتلك الأوهام.. يا للفجيعة!. عوض عكام بتلك الخبائث والنتانة، وأنا ما
زلت بذاك النقاء والغباء والطيبة، الآن أنا والماضي وعائلي في مهب الريح، أحمد الله على
موت عمي قبل أن يعيش هذه المأساة فقد ولي زمن الخير، حيث لم يعيش أيام الخراب
الذي نحن فيه. قلت له: عوض عكام افعل ما تريد لكنني لن أهرب من مصيري، وبما أنك
قلت إنها لن تسكن معي حتى ولو في عمارة إذن لنركن للزمن، فهو كفيل بمحو كل الآثام
والآثار. لم أصدق أن عوض عكام نبت له قرون، وأضحى ضحية شرور كبيرة وقذرة في آن.
لقد صرت كفأر يلتهمه قط، كلبا مسعورا تنوشه رصاصة، بقية إنسان في مفترق الطرق
يمشي لجلاديه. كنت في الأيام الخوالي كالندى المتساقط شوقا وألفة، ممتلئا بأحلام
كالورد، أرخي أذني على أكمامها لكي أستمع شهيق البراعم وهي تتناسل عطرا، انتهى كل
ذلك على أعتاب عوض عكام بلا نقاش أو دموع، كنت أحلم بشعارات "حرية سلام

وعدالة"، نحققها معا رغم الليل الطويل الكالح، كم جازفنا طويلا بأرواحنا وكنا لا نعرف
الخسارة، الصغار لا يعرفون، عودهم طري، ولكن أن تعيش وتصل للانكسار ليضيع منك
الماضي، وأن لا أمل إذا ما بكيت عليه. ها هو الحاضر.. يوصلني إلى الجنون وليس من
خلاص أو رجاء، إنها النهاية المحزنة الموصلة بالخسارة والندم، إنني أحن لعالم آخر،
وعوض عكام كخرتيت هو من دفعني إليه، لأقتلن عوض عكام!.. الليل يأذن بالأفول،
صياح الديكة العذب عند الفجر، اتكثي أيتها الأحلام حزينة على نوافذ الأهداب، لم أشعر
بشيء.. أريد إنقاذهم.. أولادي، ربما كان الوحل الذي أهرب منه يسيل في الماء ذاته الذي
أشربه، نظرت إلى وجه عوض عكام الذي كالثور وتقيأت.

هل تعود سارة من جديد

حنين مستدام لسارة التي لم يطو ذكراها النسيان، وما برحت تقفز في نتوءات الروح تتسلح
بذكائها، وتنغرس في قلبي الذي لا يتوقف من الحنين، طريق واحد الذي أعرف والذي يؤدي
لدروب سارة، نرقص معا ونغني ولا نعرف الفطام، لقد قضت عليّ تلك الصبية الرائعة بعينيها
المترقفتين، وشوقها المتفجر كالينابيع، وقتلتها شوقا وألفة حتى قالت آه، أشعلنا الحرائق
وتوهج الشجن المتألق راكضا ظمئا لا يتبدد، استأنست تبشير قدوم سارة، واهتاج الحلم
القديم. طارت أم بشار، انتفضت الأشياء كلها وأنا أوقن بأن كل التجاويف يمكن ملؤها،
والتضاريس يمكن تسويتها، وأن ظللا تسكن الجسد، وإشارات تخاطب الروح، وعلامات
تدل على الطريق.

صديقي نبيل يقول:

دع أضابيرك الكالحة وأحاديثك المهترئة، واستقبلها بصوت عاشق متهجد مبتهل لا يمل
الانتظار. ما زلت أذكر أن سارة مستغرقة في ترميم حب مدمر كادت تفارقه الروح، ما زالت
شامخة سارة كنخل الشمال، ونور شفيف كالبلور يفيض من نفسها إلا سيانه، طريا
ينسكب من عينيها النور مثل الأماسي الشجية، وتطير إليها لهفتنا فتنزلق بين الطرقات،

تحلق في سماء عميقة الزرقة، صافية وموشاة بالحنين. الآن نحن في حضرة سارة في ميناء
جدة الجوي، بروق ورجود ومطر، تهب سارة واقفة فيتوقف الكون عن الدوران وصوت
الضجيج، تتألف الأشياء كلها فتنسحب الكآبة من الوجوه. ترحب أرصفة المدينة المتشابهة
بقدمها، سارة تخرج من قوارير عطور الفترينات ومن سهيل الخيل، ومن بتلات الزهور
وشوق العذارى، ومن ضحكة الأطفال. سارة توزع الحلوى للعابرين ولا تتراجع، تسبل عينيها
فيشرق نور، ينبثق الضوء يهدي التائهين، تنبت وردة من البنفسج، تهتز سنابل القمح ويتمدد
الخصب، التفتت إليّ سارة فظللتنا غيمة. قالت لي أن زمن الكساح قد ولى، وأن الزواحف
لا مكان لهم بيننا. كيف لكبار السن أن يحقنهم بمصل شلل الأطفال؟، وأن يدفن كل
هذا العدد من معتصمي القيادة في حفرة واحدة، قلت سارة دعينا من تزييف التاريخ، لقد
تداخلت المحن، وقل الحياء وماتت القيم والمبادئ، هذا زمن التفسخ، الأكاذيب،
والفساد، وانهار ما تبقى من حقائق ومثل. قالت سارة بصوت جهير وماذا عن أيام قحت
ومتلازمة الحرية والتغيير؟، قلت يكفيننا أننا أفلتنا من عطن المستنقعات الإنقاذية، دعينا
نتنفس الآن ونعيد بعض وهج الأيام الخوالي. غاصت سارة في صمت مريب، سارة تعرف
كيف تشحذ الأمل وتصلق أيامي عند المنعطفات، لقد اكتسحني حبها الجارف وما هو

يغمر وجداني من جديد، معها لا تعرف اليأس ولا اهتراء الحروف، قلت دعينا نرقص الآن
وننطلق رغم الصعاب، الحواجز والمنزقات، إلا أن هناك أشياء يمكن معالجتها، وأعطابا
يمكن إصلاحها. سارة لا تعرف المستحيل، تتحدى الصعاب بالتسامح والصفح الحسن، لم
تتركني كطائر منتوف الريش يطوي المسافات يبحث عن رفيقه، ولكنها آبت عند المغيب،
أنتظرها لنعيد تلك اللمسات والهمسات، الضحكات والحكايات، امتلكتني الحيرة برهة،
وها هي النار تستعر من جديد أشد ضراوة. قال نبيل: إنك تحلم بالوعد المستحيل. قالت
لي سارة لنتقي معا إلى الفردوس.. هناك نتلاشى ونسلم الروح.

نهلة على المرفأ

كنت دائما مرتابا كغراب، لا يعجبني تيه الطاؤوس، ولكنني أحب ألوانه. عندما يهدي أحدهم لك كتابا معنى ذلك أنه يود أن يوصل إليك رسالة في المضمون. كانت نهلة تتحلى بأنوثة دافئة، وساقين ذاخرتين بالشهد والأطفال، فضلت أسامة عليّ، قلت تظاهر بأنك سعيد عندما تكون حزينا، كنت أعرف بأنني قبيح دميم الشكل، في دنيا لا مكان فيها للقباح. انهمكت في قراءة الكتب، صرت أقرض الكتاب تلو الآخر كفأر، أحببت الوحدة ونهلة، وارتبت من صديقي أسامة، كنت لا أعرف كيف أتحدث مع الفتيات الجميلات، وكنت أتمرن على شجرة النيم المتوسطة حوش منزلنا، أعتبرها فتاة صبية يافعة وطرية تصغي لما أقول بانتباه بائن. أحب أن أكون ثرثارا ولا أستطيع. عندما قابلت نهلة في جامعة الخرطوم انقلبت أيامي رأسا على عقب، أعطتني ثقة أكبر، تؤمن بكل ما أقوله، استمعت إليها كثيرا بدل شجرة النيم، عرفت كل شيء عنها، أشياءها الحميمة والديئة أرتني إياها، لمستها وغام الكون، كان اسمها نهلة وأحببت كل النونات في العالم، صديقتها نهى كانت تحسدها؛ لأن نهلة يحبها الناس، وصديقتها نعمات حاكم قال له الناس ارحل، حسدتني نهى لانسجام نهلة معي. حمقاء ومتحجرة القلب نهى، أحسست بأنفاسي تتعالى، قال لي

أسامة صديقي أهدها رواية لوليتا، وأعطائها هو رواية زهرة القرنفل من ورائي، كدت أنفجر
وتنفجر أشيائي كلها، كلما نجلس معا يأتي من يقطع أحاديثنا التي لا تكاد تبدأ حتى
تنتهي، قطة الشوق تقفز من عيني نهلة، عندما أغيب وأعود ونلتقي دائما ما تروح مني
الكلمات تتلاشى وتتبخر، تعمني الكآبة، وعند ذهابها تأتي الكلمات كشلال جارف
أستعيدها في وله، وأحفظها كتلميذ خائب بليد وغبي. لا أدري لماذا تصيبي التأتأة في
حضورها البهي؟، نصمت طوال المسير معا في الطريق إلى محطة الحافلة، بصوت هامس
أودعها، وأصل إلى المنزل وأستلقي على السرير، وسط الحوش تحت شجرة النيم الباذخة
أستعدّل النظارة الطبية وأظل محدقا في سقف السماء أتأمل النجمات الشاردة وهي تلمع
في البعيد. كان ذهني يعمل كطاحون. أن تحس بأنك لست وحيدا وأن أحدا يفكر فيك
كما تفكر أنت فيه، يا للسعادة!، ابعد من اللمس لكيلا تنفجر هكذا نصحني صديقي
أسامة. نونتي صارت تفهمني جيدا، عندما أكون مرتبكا وفي مرحلة انعدام الوزن تعيد توازني
حتى لا أصاب بالدوار، لا تستطيع أن تسيطر على نفسها نهلة، ريانة وندية، تسرح في عوالم
تخصها خضراء وبهية، والكدر ملأى بالليمون الطازج والمانجو والبرتقال، لا أحب الأشياء
المقفلّة، الإغلاق يزعجني، أن تظل الأشياء مفتوحة.. تكمن سعادتي هناك، يعني أن يسطع

النور ويعم البهاء الكون، ليست هناك مقارنة بين نهلة وصديقتها نهى، شتان ما بين الليل والنهار، كنت أريد أن يطلع النهار حتى أتأكد من أن نهلة غير غضبانة عليّ مما بدر مني يوم أمس، نظراتها كانت تقول لي شيئاً وصديقتها نهى لاصقة بها كغراء، نهى كوجه القطر، دميمة وشكاكة. كتابي لنهلة لم يعط مفعوله والرسالة لم تصل؛ لعدم اهتمامها بالقراءة أصلاً، ولنظرتها البعيدة للأشياء والناس. نهى تعتبر أن القراءة مرض والأفضل الوصول إلى الهدف مباشرة دون اللف والدوران، لم يصب أسامة بخيبة الأمل، ولكنه واصل المثابرة باستحداث طرق أخرى لجذب نهلة والفتيات الأخريات، كنت مع نهى جالسين في حديقة العشاق (حببي مفلس)، الطقس يوحى بهطول الأمطار في كل لحظة، نستمع لأغنية الجندول، الطقس طقس فول وبخور، كنا وحيدين فتشجعت وقلت لها أحبك!.
السكون يعم المكان كله، عندما وجدتني نهلة أحادث نهى غامت الدنيا في عيني وصرت كطائر مبلول يتخبط في الظلام، نهى لا تحب التعجل، ذكاؤها دائماً ينقذها، أرجعت نهلة الكتاب لأسامة في حضوري واتفقنا على ألا نؤذي مشاعر البعض، وعلى الرصيف المغبر جلسنا أربعتنا دون أن ننس بينت شفة، ضحكنا وكدت أن أحتضنها نهلة، صدرها كاد

يقفز، خرجت حمامتين صغيرين بيضاويتين، داعبتهما وقررت ألا أخدش مشاعر إنسان أبدا
كالزجاج إذا انكسر لا يمكن إصلاحه.

عزف منفرد

كان النسيم معنا وهسيسه المتلاحق يغمرنا أنا وسناء، تهجم علينا أشواق وذكريات فجائية
وهي برشاقتها تخفف عليّ وقع الصدمة، أتحرش بها وأيادينا تلامس استدارة البرتقال..
اضطراب أحسه وقلبي الطائش لن يستكين إلا ونحن نجتاز عمارة التاكا، موسيقى راقصة
وفتيات جميلات يمررن كأني في حلم وضحكتها تسري فيّ، ينبت الود محملا على
سحب العشق دون عواصف، صديقي النقي أفقده الآن وهو يحدثني عن رومانسية الزمن
الصفيح، وعن مرثي حزن، وعن بكاء ودموع.

كان يحب الجندية وفخوراً بنفسه بلبسه الكاكي، الذكريات تتساقط الواحدة تلو الأخرى
بصفاء. من الشباك يأتي هواء بارد وضجيج المارة وذاك الحنين، سناء تقفل النافذة وتعديل
من ذؤابتي شعرها، تضحك ضحكة ملتئمة، وأسير إلى آخر المدى أمتلئ بالرضاء والشوارع
تهتز من ضوء لمبات النيون، أحس بالوحشة ترهق إحساسي، وأود الحنو وأنا المقصر،
تغرورق عيناى بالدموع، كنت أتمنى ألا تمضي اللحظات المتوقدة، وأن يزول هذا الليل

الذي لا آخر له، طال السرى وبعدت الشقة واستصعب النأي، فأين المرأى ومتى المعاد.
هل يفيد التوجع والاستنجد والشهوة ونحن نود الأمان والامتثال والتآلف؟ نريد أن نعزف معاً
وأن يكون الأداء معبراً، الدعاءات التي تنطلق من المآذن تدعو للحب بهددة تزيل
المخاوف والهواجس، حتى يعم الوطن الناهض، لقد مضينا وتفرقت بنا السبل، عشنا أياماً
الهبة فيها النور الوهاج الذي يضيء الظلمة، ولحظات باذخة ورصينة عشناها معاً، كانت
هناك ليالي انحسار وهبوط، ولكننا نتجاوز أيام الغيظ بالبحث عن منابع تملأ المواعين
وتفيض، الحبس والعقم داخليين، نزيلهما بوميض الأمل، وبجمال النفوس المنساب على
تقاطع أسيلة، نزيل التواشجات والتشابكات ونطرق عوالم جديدة، نزيح الوهم والضلالات
القديمة، والتهيه ولوعة البحث عن مخرج، نزرع الشوارع الجامدة لا نخاف الاحتراق ولا
الجنون الذي تتفتح له أزهار البرية في الحلم.
أجيال وراء أجيال ولدتهم سهوب السودان وابتلعهم المهجر، ألوية ذهبت بلا رجعة.. هل
تنفع المراثي أو التفجع؟ والزمن المخصي ما زال يتلبسنا كصاعقة، والعقبان تنهش ما تبقى
منا. علينا أن نصغي جيداً لهذا الهدوء الضخم والصبح الصافي، وإلا سيسري اضطراب
كامن في العروق.

الليالي سجال

أمامي شجرتان ضخمتان وظل، ما بينهما فاطمة تتشاءب حيرى مع أماسي المدينة ولياليها
الزاهية، وإشراقة شمس يوم جديد. الأفق هادئ والصبح يتسم في ثقاقل جميل، النهر يجري
ببطء فائق، كذرة تعلق وتهبط حالي هذه الأيام، غصت في مستنقع موحل، دار رأسي
وشعرت بالمهانة في هذا المكان القدر، عجزت عن تحطيم شيء ذي قيمة، ووقفت
أشرعتي دون الإبحار. قالت لي بصوت هامس، ونحن وقوف في الحافة: إنك كذوب أشري
وتدبج أحلى الحديث في شعري الطويل وأنت ترتجف حتى أحمص قدميك لنظرة مني،
متى تنأر لنخوتك أيا رجلا من صقيع. أثارت اشمزازي بصدقها المفاجئ وتحرك تقززي
المكبوت. قالت ونحن نسير على شاطئ النهر إنكم جميعاً تثيرون الشفقة، مظهركم
الخارجي خادع حتى النخاع. لم أعرها التفاتاً، الأسي الأسود يطفح في وجهي كبثور جدري

قديم، انهارت كل قواي بعد كفاح مع الصقور التي بانت مخالبتها في إطار من العتمة
كانت تلتف، تهيم في مسارات بعيدة، يأتي الصدى حاملاً صدى الأيام وصهد اللحظات
الكثيية. أغمي عليّ بعد أن صرخت كثيراً.. بح صوتي.. عددت الأناث المتلاحقة.. جريان
الدم في الأوردة.. خفقان الموج المتتالي.. تلويح الأيدي المتشنجة.. والنظرات المنكسرة
المتشحة بالنفاق والرياء. قفلت راجعاً أجزر أذيال معركة خاسرة.. هزمتني الحدأة وجوارح
الطير والصقور، صراع مرير خضته، انكفأت على يدي في نشيج غريب.. صياح الصقور،
صراع مرير خضته انكفأت على يدي في نشيج غريب.. صياح الصقور أفض مضجعي
أرهقني العرك المتعب الممل ونشدت الخالص.

قال محدثي: إن الإله الأعظم أتى في ركب كبير من الملائكة عند بدء الخليقة، وفي اليوم
السادس صار يخلق كثيراً من البشر، من أقصى الشمال هبت ريح باردة وخلص الصلصال
النقي، خلق بشراً جميلين ذوي أنوف مستقيمة وشعر طويل، وتوغل الرب في أواسط البالد
حيث أدركه التعب، فأضحى يخلق أناساً بأنوف معوجة وشعر مجعد، وأخيراً سئم صنع
الناس عند مغيب الشمس، أوكل المهمة لملائكته المقربين فصنعوا في عجلة من أمرهم بشراً
مثل الدمى.

نظرت إلى فاطمة التي تثير شهية الرجال، فيها ما يجعلهم يديرون الرؤوس نحوها ببلاهة
تثاؤبها المفاجئ وحديثها الخفيض، نظرات الإغراء التي ترسلها، استكانتها الدافئة.. وأحمد
صبي من الريف يموت عند ابتسامه فاطمة التي تعرف ما تريد، ولا يدري كيف يوصل حنينه
الذفاق ولهفته التي لا أول لها ولا آخر، صاحت الحدأة وأصابعها تقطر دماً، هذا لا يصح!
تجمع خلق كثير وابتأسوا من تصرفاتها الحمقاء، كانت تنهش اللحوم نيئة! زوجها العجوز
يراقب معركة مفروضة.. فقدت أسلحته مضيها فمضى كجرذ كبير أجوف، صار صياحه لا
يرهب أحداً، تساقطت أسنانه كأسد هرم وراح يضرب الأرض برجليه، يثير ضجة عالية
ليحكي تاريخ مجد اندثر. وأحمد الصبي التائه استهلكه الضجر، رقص خارج الدائرة فأتت
أحاديثه جوفاء لا طائل من ورائها ولا نفع، رغم صياح الحدأة فما زال ساهماً يلوك الأسي،
ويجرع كؤوس العنف الأهوج، والعناد المقيت.. ويمتد الظل.. أمامي كشجرتين وفاطمة..
وليالي المدينة الحبلى بالمجهول.. والشباب جلوس يجترون الزمن.. السوق يذبل، الطقس
يذوب، الأفق يغيم وفاطمة ما زالت تتحدث بصوت خفيض يثير غريزة الرجال، والشباب
حولها جلوس، والظل ما زال ممدداً يسد الكون كله، والذرات تعلق وتهبط.
خرجت خالي الوفاض أخوض غمار أيام قادمة.

كبرياء مريم

كانت مريم تخطر في دروب الحي باعتزاز، يهتز جسدها المتبرعم، تخرج كلمات شباب
الحي همساً، تلتهمها جوعاً، وترتد حسرة وتساؤل. تسلل غرباء أتوا من أماكن بعيدة
استباحوا جمال مريم وبراءتها، استراحوا في ردهات الحي يتفرجون، جلسوا هناك وما زالوا،
حفنة من القمح لا أحد يعرف مصدرها، هناك من يعتقد أنها جاءت من رجل خير، آخرون
يعتقدون أنها انبعثت من الأرض، وبعضهم يقول إنها نزلت من السماء. وحدها مريم التي
تقول: إن حفنة القمح مصدرها شعاع القمر، تهافت على حبات القمح الناس، انتفخت
بطونهم وأوداجهم بذرات الحنطة، غدى الحرام أوردتهم فاستطالت نظراتهم تلتهم ضوء القمر
وشعر مريم.

مات ناس كثيرين يوم أن أكلوا حبات الحنطة الممزوجة بضوء القمر، كانت لبعضهم مناعة عجيبة، واكتسى لونهم بلون قمح الأرض الذي تعانقه أشعة الشمس وتهب عليه رياح الشمال، لمعت وجوههم ونعموا بالعافية. كالبالونات الفارغة أصدروا ضجيجاً وأضحت شهيتهم لا تقاوم، وحدها مريم سقطت في ناظري يوم أن أكلت من بذرة القمح الفضي، أصابها الغرور وأضحت تتعالى كطاووس أجوف، أشفقت على خيلائها من التدهور وعلى غرورها من السقوط في الوحل، ورأيت امتداد السهول والبراري المملآى بالمحصول، سنابل الذرة المحملة بالخير الوفير على مرأى البصر، مزارع الخضروات والعطاء الآتي في أيام الحصاد الأولى. كثر الخير وفاض فأضحت حفنات القمح الفضي تثير الغثيان والاشمئزاز، قل تهافت الناس عليها، وأضحت تصيب أكلها بالحمى، انتشرت وتمددت لتحتوي المزارع الخضراء.

أشفقت على مريم من حديث الناس وما بداخل البيوت المقوسة على جنبات المدن المصابة بالجدرى وحمى اليرقان، وغادرت أسراب الجراد القارضة فتلاشت محنة مريم! وأضحت كبرياءها، عالية خفاقة، سنابل خير تعانق قطرات المطر الآتية من سماء عميقة الزرقة.

التحول

صوت ناي بعيد يأتي متواتراً، يختفي ثم يعود من جديد، وعياط جالس على صخرة عند ساحل البحر يتأمل الموج المتكسر، وفي خاطره انكسار على ذهاب العمر وضياع الأحلام. فجأة هبت ريح باردة ونزل مطر نفاذ الرائحة غزير وأسود، أيام بطولها والمطر يتوالى والسماء مثل قرية انفك رابطها. توقفت الأمطار بعد أمد، وأصبح الناس بظهور مقوسة ونظرات منسكبة إلى أسفل كأنهم مقيدون بسلاسل شلت منهم الأطراف والأيدي، وصاروا أشد

عبوساً، مات ناس كثيرون بعد أن توقف المطر، عشرات المواسم ولم ينزل على جزيرة الأبيد
مثل هذا المطر.

قرر الناس بعد جدل متواصل أن يتوجوا عياط عمدة للجزيرة، بأنفه الضخم والنظارات
العاكسة والرأس الشحيح الشعر، كان أميز الناس انحناءً وأطولهم قامة وأكثرهم تأملاً
ورضوخاً، فاز عياط عمدة للجزيرة ولم يهنأ برئاسته تلك حتى حدث حادث في وسط النهار
والشمس في كبد السماء.

صافرة السفينة الضخمة المتلاحقة تشق عنان سماء الجزيرة، ترعب سكانها المحنبي
القمامات العابسي الوجوه، نزل من الباخرة المزمجرة في عرض البحر أناس بيض بقامات
مستقيمة وأنوف شامخة، قرروا أن يأخذوا من جزيرة الأبيد ما يملأ باخرتهم التي التهمت
نصف سكان الجزيرة، كان عياط من بين الذين تم أخذهم لداخل الباخرة حيث زادت
انحناءته وصار صقراً مهيض الجناح، التف الأهالي حوله وبدأ يهتمهم بحديث مبتور ومبهم،
انفضوا من حوله وجزموا في قرارة أنفسهم إن حالفهم الحظ بالعودة إلى الديار مرة أخرى ألا
ينصبوه رئيساً البتة.

بعد رحلة طويلة ومضنية رست السفينة في الجانب الآخر، مزارع الفاكهة والقمح على مد
البصر، معامل الخبز النظيف والسيارات التي تحمل الناس أماكن العمل الأرض كبساط
كبير أخضر، وآلاف الناس تعمل بهمة ونشاط.
تغيرت أشياء كثيرة وأضحى الحال غير الحال.. وصار عياط اسمه إياد.. وكلما هدأ الليل
ذهب إياد إلى الصخرة النائبة عند الساحل حيث يسمع صوت ناي حزين كما الطمبور
والدوبيت والنم يناديه إلى حيث الجزيرة الحلم، يوم أن كان سيداً رغم ظهره المحني وأنفه
المعوج.

غيرة

نحن الآن في أول شهر مايو، تبقت ثلاثة شهور لاحتفال أمل وكامل بعيد زواجهما الأول،
أمل الرائعة التقاها كامل في كلية الفنون تدرس النحت، تأخذ بمجامع القلوب وتأسر

الطالب وهي الواثقة، كامل محتفظاً بهدوئه أكد أنه يحبها وسرعان ما تزوجا، وها هي تسعة شهور قد مرت كانت من أجمل الشهور وأحلاها. كامل ود لو يحلق خفقان قلبه وهو يفكر بأمل التي من أجلها يمكن أن يمتشق الصعاب كلها، أمل صارت تسخر من كامل وبدت في هيجاناتها نحوه كإعصار شديد الغلو، أضحى كامل كالمسول لا يصدق أن أمل الدعية المتشككة والعنيدة أيقظت شياطين حقه، وكيف أن هذا الطريق يؤدي لمصير مجهول، اللحظات أضحت ترايبية وارتجت أيامهما وتقلبت من سيئ أسوأ. كامل امتلأ بالوهم أن هناك روحاً شريرة امتلكتها، وها هي تحشد الشحاء والبغضاء حقولا من الأسى، كانت تودعه بدموع حارة وهو يغادرها للعمل، وعندما يعود تصافحه بالاحتضان معبرة عن سرورها لرؤيته ثانية، تلك أيام السعادة كانت قد مضت، كان موقناً أن عروقتها تجري فيها دماء نبيلة. الآن ما أضحى الجلوس لوجبة الغداء رائعا، ولا تدخين النارجيلة بالفتح والجراك ممتعا. كامل خامره الشك بأن أحداً في حياة أمل وأن قواربها المتقلبة أضحت مكشوفة، من يصدق هذه الحكاية!

كامل أضحى غيوراً وأحاطته الظنون البد أن هناك آخر وإلا لما قلبت له أمل ظهر المجن، ذهب كامل إلى العمل وقرر أن يعود سريعاً ليستيقن، وها هو قد غادر حذراً متمهلاً

متلصصاً كقط. عند باب بيته سمع ضحكات أمل وبهدوء تفادى الكرسي على الممر
والطاولة التي اعترضت طريقه، ووجد متعة مشوبة بالألم وهو يستمع أمل وهي تداعب شيئاً
في غرفة نومهما.. ضفره الغضب.. تملكه الرعب.. سيطر عليه الخوف، تعاسة كست
وجهه، أمل منفردة في غرفته تحادث أحداً يا للرهبة!، صمت مؤقتاً وهو يسمع همهمات
اللطف.. الحنو والدعابة وأصابه الاحتراق.. دفع باب غرفة النوم في تشف وجد أمل بقميص
النوم الشفاف وهي بكامل زينتها. أخذه من رجليه طوح به وأمل تستنجده، تستعطفه أن لا
يضره، وبشجاعة ورباطة جأش انهال عليه بالضربات، رماه احتدم غضبه داسه برجليه تهمش
رأسه وأذرعه، قالت له أمل وهي تبكي بحرقه: لماذا أقدمت على ذلك، لقد كنت أفتعل
معك المعارك طيلة تلك الفترة حتى أخلو لِنفسي وأصنع هذا التمثال سراً أقدمه لك هدية
عيد زواجنا الأول.

المجنون

لك الله يا عدلان! ماذا أصابك؟

قالت أمي بأه حرى.. وفي عينيها إشفاق ودهشة.. وأنا أضحك بصوت عال حتى يسيل
اللعاب من فمي، فقاقيع من الصابون أمامي أود أن أمسكها ولا أستطيع، أجري خلفها حتى
تنقطع أنفاسي. ينعكس عليها شعاع الطيف وضوء الشمس، توجد ألوان قوس قزح الباهرة
التي تخطف النظر. قلت لها مودعاً سنلتقي على شاطئ النهر عند الأصيل نقبض الموجات
الهاربة، ونهمس لرمال الشاطئ التي تعانق ذرات الماء بتحنان. لوحت لي بيديها مراراً وبانت
ابتسامتها الرقيقة وقدها الرائع كغزال شرود. قال أبي: ماذا بك يا بني، أراك سرحت بعيداً..
تلقف أخي الحديث: إن بنات المدن لهن سحر خاص تعلق قلبه بإحداهن هناك.. ومنذ أن
عاد وهو في هذه الحالة. ملعونة أنت يا سلمى لولاك لكنت الآن في مكان آخر وموعد
آخر، ولكن الزمن يجري بين يدي كدفقة المطر وسريان العهن المنفوش في الفضاء.
لم تتحمل أمي الصدمة فراحت تتحسر على شبابي الذي ضاع. والدي يواسيها بحسرة،
وصبر الرجال يهد كاهله ويقلل من دموعه التي غالبت السقوط، أختي البكر تخبيء دمعة
أبت إلا أن تنزل، ابتسمت لهم جميعاً وطفقت أعدد أملاكي في أرقى الأحياء وأرقام
السيارات المحملة بليل.. وعدد المصارف التي استودعها أموالها والسندات الممهورة
والشيكات..

صرخت خالتي وهي ترى حالتي المزرية.. جددت جراح والدتي التي ما زالت تنزف. أخي ما
انفك يصير أن بنات المدن هن السبب، ما زلت ألوح لها مودعاً وابتسامة منها تود النزول،
وألوان الطيف على البالونات المنتشرة تضيء المكان كله. راحوا منذ تلك الأيام يعاملونني
بشفقة ورفق وأحياناً بحذر وخوف، أصرخ فيهم أن يفهموني ولكنهم لا يودون، أطفال حارتنا
يتابعونني بنظراتهم البريئة بها ألف سؤال، وأنا تائه لا أعرف أهم المخبولون أم أنا من ركب
المركب الصعب؟ أحب الجري والعدو والانطلاق بحرية في اليوم الممطر، وأن آكل على
قارعة الطريق وأنشد الأناشيد الحماسية. المارة يحملقون فيّ بريئة تعجل بقيامي من ذلك
الرصيف المحبب الجميل.

رويداً رويداً تغيب الشمس والأنوار تبدأ في التلاؤلؤ وأنا أنظر، أتى موعد لقاءنا وما زلت
بالخاطر، أيد تلوح وابتسامة تبدو في الأفق. لولاك يا سلمى لما احترقت بلهيب محرق وأنا
ألمس شمس ذلك اليوم التي أشرقت صحواً ولن تعود، أنت التي غيبت رموزاً في دهاليز
الظلمة ورحت تفقئين أعين الأمل دون رحمة، وتررعين الممرات جماجم عفنة!. سرت إلى
الموعد معصوب العينين أجد نفسي في وادي الخوف والرعب والموت، ملأت الفقاقيع

أوردتي، سدت البالونات أنفاسي، اختنقت.. صحت.. ورحت أضحك ملء أشداقي حتى

تدمع عيناى ومن يومها وأنا أهذى..

عدت لدارى وأنا أضحك هم محزونون وأنا أضحك.. أهلى مندهشون وأنا أضحك..

قالت أمى: لك الله يا عدلان ماذا أصابك!؟

وكانت عيناها مليئتين بالاحمرار والبكاء والحنان.

هطول الذكريات.. غياب الشجن

جاءت سوزان هكذا فجاءة دافئة ومهيبية، انخلعت أبواب قلبي وشبايبك فؤادي، ارتبكت
وتوقفت ساعة الحائط عن الدوران، خفق القلب كحصان متوحش.. الأنفاس تتصاعد..
عطر يجتاحني كإعصار. وفي قميص أزرق تتوشح وشال في لون الغيمة أتت، السماء ملبدة
بالسحب وما لبثت أن أمطرت كأنما تشاركني المفاجأة.. كالتقاء الأبيض بالأزرق ساعتها.
قبلها كنت أقول لقد انتهت المرحلة الأمينية والسريية وها هو زمان المفاجآت والتحويلات
قد أتى، أيمن أن نتفادي الكارثة؟. ها نحن نلتقي من جديد، ازداد ألق العينين وصارت
الابتسامات أكثر عذوبة، يا لهذا الغياب الأرقط كقطة فقدت بعلمها!.. وتساقطت الذكريات
كمانجو شديدة النضج.

لقد دهشت وهي تراني. قد تغيرت، شيء ما زال فيها أجمل من الحب، تخترقك بلغتها
المهيبية، ترقص الكلمات في فمي كطائر ذبيح، فتحت قاع دهاليزها وحدثنا عن غيابها
الذي طال، وارتباك الخطوات الأولى التي أعقبتها لحظات الانتشاء، وتواترات الفقد وذاك
الأسى. تحدثت كثيراً عن أن الأشياء لم تعد هي الأشياء، عن أنها لم تنسانا طيلة فترة
غيابها التي طالت. تجيل النظر بعيون مكتحلة وتساءل عن أمين ومحمد شرف، عن نبيل،
مناهل، ماجدة وكوثر. سألتها عما كانت تفعل في فترة غيابها، وعن ظلال الحسرة التي

تمتلك محياها، وما الذي ذكرها لنا الآن؟ حدثتنا عن رحلتها وأنكرت أنها قد نسينا، وحتى لا تنكشف حصونها راحت تنكر أننا مازلنا في الخاطر، وهل كنا نتوقع حضورها، لحظتها قررنا أن نحتفي بها دون ذكر التفاصيل.

عندما خلوت بها حاولت أن أستعيد شيئاً كزجاجة انكسرت إلى شظايا وتناثرت على قارعة الطريق، الاحتفال كان حدادا تنقصه العواطف، نصير أغبياء إن أردنا إعادة الأيام التي مرت والوفاء نادر، شعرت بحزن أيام تأججت فيها نيران الحب، ذلك الزمن الجميل الذي مضى، كنا نضحك ملء أفواهنا كأن ليس هنالك فراق.. فقدان وإلى الأبد ذلك ما كنا نخاف منه وما هو قد حصل، الانفصال.. يا للبشاعة، أن تدير ظهرك لأحد. آنذاك أسقطت سوزان من حياتي إلى الأبد، وازدادت فجيعتي وألمي، كرهت دخولي هذا النفق المظلم. كل ما كنت أترقبه سراب، قلت لها في فترة غيابك كنت ألاقهم، أصدقاءنا المشتركين، وأذهب أماكننا التي كنا نزورها معاً، قالت لي وهي تصطنع البراءة لقد اقتنعت، وفي صوتها نبرة حزن.

رأيت خاتم الزواج على إصبعها، ارتبكت أناملها وددت أن تبوح بشيء أسكتها.. وهي تتلاعب بحافظة مفاتيح وتنظر لساعتها قالت علي أن أذهب الآن.

هنا أوقدت شمعة في مهب الريح

حب بدائي متفرد عميق وممتليء، عشق وجنون، وذلك البريق المتلون والمستمر، رغبة الامتلاك وهذا الانجذاب، التقاها هشام واتفقا على الزواج، ليس هناك مجال للمناورة الألم والصراع. وها هي الدنيا تستغرق في سبات عميق، ونسائم دعاش فصل الخريف تهب على خواطر هشام تهبها أنساقاً ناعمة وحنونة، وهو ينقاد مغمض العينين لهناء التي اخترقت تحصيناته بحب لا ينضب، وصار ممتزجا في لحظات تنقصها الكآبة، وانطلقت روح هشام تحلق في سماوات من الألق والبهاء. إلا أن ما حل ذلك المساء جعل الوجع يفرخ ويبيض. إشارات والدها الغامضة جعلت وتيرة الأشياء تسير إلى منحى يلفظ أنفاسه، قال لهشام لا بحجة أنها البد أن تتم دراستها. حديثه غير اللائق، لغته الشائكة جعلت الكون يكفهر، أثار سخط الجميع واستياءهم، ضيق تفكيره وقسوته، هناء اللطيفة ذات الضحكة البلورية المترفة والناصعة تمزقت من الداخل وهبطت نضارتها، وبهدوء متناغم رفضت واقع الحال وصارت تنسحب وتهذي باسم هشام، لقد تشبث والدها بالخطأ، خيم الحزن على المكان، الفراغات صارت تتمدد وها هي تسبح في السراب بعد أن نبض العالم واختل نظام الكون.

هشام كفرع البان أخضر وولوف، أخذته التيار الجارف وصار مجنوناً بهناء كأنما لدغته
عقرب راح ينتفض ارتباكاً جعله يقف معها. لقد توصل هشام إلى لغة لا يعرفها هو نفسه
بعد أن أوصدت كل الأبواب، صار في كابوس كبير، ألمت به وعكة جعلت الجميع يقف
بجانبه، هناء هناك مصابة بالهستيريا والهوس والجنون. لم يتجرأ الأهل بحل الأمر وهم
الواقعون تحت تأثير رفض غير مبرر، تناقضات ومزاجية والد هناء جعلهم يتساءلون عن
العشق الأعمى والمدمر، وهل الحياة تستحق كل هذا العناء.
قطيع من الألم القاهر ساد اللحظات، والحكاية لا تقبل الاعتراض، تفاهة ورفض المشاعر
الإنسانية القائمة، وأضحى هشام وحيداً، يبدو شحياً ونحياً، والد هناء الجاهل قطع
العتمة وحده وهناء بجمالها الرائع والوثاب أوقدت شمعة في مهب الريح .
هشام حدد الهدف بذهن متفتح، وتشبث بفكرته ورغباته والعالمات، وبرهنت هناء بموقفها
منه المستوحى من قوة إيمان بالمبدأ، تناوبتها حميمية طاغية وترجم هشام مشاعرهم
المشتركة إلى لغة لا تعرف التأويل، وبإيحاء أضحت الحقيقة واقعة، وذات صباح رائع
وجميل تزقزق عصافيره على الأغصان وافق والد هناء، انفرج الرعب وانزاح الظالم وراح هشام
يهمس لهناء عن أيام المأساة وكيف أنها مضت، وأريج شيء كشمس البرتقال يلفهما معاً،

تستعيد هناء لون القمح وهذه السعادة التي تطل على الأفق وتلمع كالنجوم ناسية أيام
التمزق، هذا هو الماضي الناقص والكئيب علينا أن ننساه، قال هشام وابتعد عن المشاهد
الوضيعة والزمن الضائع التعيس بإرادة قوية، انتصر هشام والتقيا كقارين في مرفأ تحت
السماء نفسه والشاطئ نفسه، ومن جديد راحا يلبيان نداءً لا يقاوم أن اتجاههما واحد،
وطريقهما واحد، وهدفهما مشترك، وغمرته بحنانها هناء.
أصيب هشام بالذهول، وبنظرات ملائكية داعب مشاعرها. اتحدا بحماس باهر، وبهدوء
جلسا دون تأوه يخططان لتجنب الصعاب والمآزق، وبصوت واحد قالوا لوالد هناء: بعد
الصلاة ادعُ لنا بالبركات.

قلي حكايات في فضاءات لا تحد

على شاطئ النيل الأبيض في قلي يجلسون يقصون القصص وهم متعلقون حولك. أحمد طلحة يحب وجه قلي الناضح بالنضارة وهو يداري شجاء، يتحدث لباب الله عن الوجد القديم والغم وهو يتأهب للنهوض، أحمد طلحة يتمطى يداعب حلم مراهقته بصياغته للدنيا الجديدة، ويشيد امرأته المنشودة بصلصال الخيال الخصب. التيمان تحت ضياء القمر مع باب الله يتغنون لحمد الريح وزيدان، تحتدم لحظات الشجن في أوقات الضيق والملل، ووحشة القلب تتماهى في فصول الحنين. نلتقي، نركض، ونطير، والأيام في هناءة الشهد يلفها الغمام. النخلات باسقات على شاطئ النيل في قلي، ذؤاباتاها تهفهم مع الريح، وشجرة السنط في عناق مع الموج، وغناء باب الله يصل حتى الشاطئ الآخر من الدنيا. أحمد طلحة يستعيد الذكريات كأنما يمسك البرق، أحب درية الفارهة وكأنما دخل في زمن المدى الرحب والجذب والنفحات، يحكي أحمد طلحة ونحن نستمع في انبهار، يمسح يديه كأنه يطرد الكآبة، أحمد طلحة لديه القدرة على تطويع المحال. كانت عواطفنا الصغيرة ملتهبة، تختزل الصور لفتيات يافعات وصبايا في عمر الورد جذباً وتحناناً، والأيام

في دورانها الخاص، كنا نحس بأن لدينا أجنحة، الصادق هاشم يعزف على العود أنغاماً
تأتيه منزلة. وقلي تمتلئ بالطيور المهاجرة والتعب، ترتاح على أشجار السنط العالية وتتفياً
الظلال، تفلي ريشها، تنقر الثمار والمحاصيل، ثم تغرد مغادرة. أحمد طلحة يحكي بحيوية
دفاقة يداعب أحلامنا. سوق قلي مليء بالبضائع والحركة، والمقاهي يؤمها الناس، يأكلون
سمك الشلوية المقلي والبطيخ والشمام، ويشربون الشاي بالحليب المقنن والخبز الحار
الطازج في مخبز خليل. تصل البواخر من الجنوب أو الشمال محملة بالبضائع والناس، عمق
قلي في أسرارها وصمتها الغامض. إدريس علي ومحمود جمعة وخالد علي يجلسون في أبهة
قلي أسرارها وصمتها الغامض، عروس النيل الهادئة والتمنع والرغبة والمساعات الفرايحية في
مساراتها السرية والحالمة تصيبك بالدهشة، الجزيرة، شجرة العرديب الضخمة، الكبرى
الأبيض، النوادي التي أغلقت أبوابها. الحمام الزاجل بحضرة ماء السكر قال الصادق. القمر
في قلي له صفاء خاص، فقاعات أثر الموجات تدق أحجار الرصيف، والسراية الضخمة
تقف شامخة رغم تغير الظروف. هنا كانت حياة زاخرة بالحب والوفاء، نشاهد من على
البعد هفهفات الرايات مرفوعة عند الشيخ الإمام، صوت موج النيل يدخل شغاف القلوب،
تبتدد قسوة الأيام، تتعري لحظات الزيف وأحمد طلحة يقذف بملابسه على الشاطئ، تملأ

ركبه برودة الماء. ذكريات أيام الطفولة لا تنقضي، يأتي صوت باب الله ضاحكاً بحنو قصب
السكر، يدندن عاشق درية القديم بلحن شجي والأيام أمامه في اتساع الكون كله، المرأة
والحرية لا يلتقيان. قال الصادق: تفرقنا ولكننا مازلنا نفيض بالحنين الدفاق والشجن ونطلق
الضحكات عالية تصدع القلب تحت الصفاء الإلهي لمجرات الأسي. لا نتحب كالنساء
ولكن الحديث عن قلبي يثير الشجن، أسير للقلب ويجعل المرء يفيض بأشواقه المخفية
يطلق طيور أعماقه راسماً حكايات في فضاءات لا تحد.

الحاجة فاطمة

الحزن المنسرب للشباب غير المتزوجين الآتي عبر شارع النيل نعى المرحومة الحاجة فاطمة، حيث كانت تفصح دائماً عما في ذهنها، البد أن تنفجر الحقائق يوماً. البلاد مرت بكثير من المصائب والآن عليها أن تتعافى.. تحلم ببزوغ فجر عالم جديد. بلاد حرة متنورة ومحبة فوق الانتقام أنها تغفر موحدة، متعلمة وذكية. الأرض الأسيرة سالم، حملت الريح أحلامها حيث سيتلاشى الكذب وتسود الحقيقة.

في صباح إثنين خريفي حزين حين كان الأذان يرسل صوته الشجي بأن الصلاة خير من النوم والهواء مفعم ببرودة الصباح الباكر، كانت الحاجة فاطمة تلفظ أنفاسها الأخيرة، عاشت أيامها ببعض من غضب، ألم وخيبات أمل وقليل من البهجة والفرح. أحبت أولادها حتى الثمالة وكان تواصلها العاطفي متيناً، كانت كما السودان بأنهاره ووديانه وحقول الذرة المحملة بالمحصول والبول والسّمسم، نيله وعصافيره المزققة وحدائقه الوارفة وبساتينه المعطاءة، وفوق كل ذلك عمت المأساة أهلها لفقدانها، بكى الجميع دون توقف.

كانت تحكي عن الثريا ودرب التبانة والعنقريب والعقرب، وعن عينات فصل الخريف،
الجبهة والطفرة البكايا والسماك، وعن المهدي الإمام وكيف وجد اسمه منقوشاً على صفق
الشجر وقشر البيض، وعن سيوف العشر. عن التاريخ والناس والجغرافيا كانت تحكي، عن
النجوم وأبوزيد الهلالي وفاطمة السمحة والغول، ووقع الجميع في حب القصص وشرب
القهوة في العصاري وأكل الترمس والفل السوداني والبلح والسَّمسم المقلي في أيام الشتاء
الباردة، وتظل في مداراتها تهتم بالناس كل الناس، كنا نشعل ونخمد وننسى اللحظات
التعيسة. كانت تتبادل الهدايا مع جاراتها، المسيال وفك الريق وتتنن القهوة، تعمل بإتقان
طبخ الملوخية والرجلة والكفتة والكنافة وللتحيلة عندها طعم خاص. تعرف في الزراعة وتربية
الحيوان والدواجن. قالت لابنها البكر ذات يوم ستقتل قلبي. كان شقياً يوماً وكانت دائماً
ما توصيه على الصبر والصلاة. كانت تشعر بالشفقة والخجل والخوف، وكانت مهمومة أن
يتعلم أولادها والبنات، ناضلت حتى خرجتهم في الجامعات، وبما أن زوجها متوفى لم تتوان
لحظة عن تحمل المسؤولية بإرادة حديدية لا تقهر.

بعد موتها راح الألق وذبلت الحديقة، ما عادت الأيام تضح بإثارة جديدة، وكأن بهاءً معيناً
قد غادر ساحات غرفتها وإلى الأبد. ما عادت الأماسي بهية وفقد أبنائها حماسهم وما عاد

الإيقاع هو الإيقاع، وفي الأيام التي تلت تلاشت المسرة، ما يشدهم للحياة صار رخواً.
وبروحها المتوجهة الوثابة تحلق دوماً في أحاديثهم. وأتت براءة أخيراً ابنة حفيدها عمر كأنما
تقمصتها روح الجدة.. رفعت هممتهم وصاروا بها سعداء.. يا للهول! أسماؤنا تدل على
مصائرنا والنهايات. وكخيال جوال رأوا صورة روحها في النعيم تنظر وفي عينيها الفرح
والسرور، ويدها ممدودة لتقطف تفاحة حمراء.

وهل حكى المحار الحكاية

في هذا الغروب الكئيب قال طلب: لقد تهنا وأضحت أرضنا أرضاً للضياع، لقد كان حراً
مثل طائر لشدة ما ملأ عينيه بالتعجب وفمه بالتشهد.

هذه حكاية قديمة روتها النوارس للبحر، وأسر بها البحر للموج الصاخب، وهمس بها موج
البحر للأصداف وصارت الحكاية تتناقلها الأفواه. طلب صبي غر، أرق من النسيم في
وداعته، وأحلى من نيل الأمانى، ركب المركب وأشرع صاريها للريح، تجاذبه نرق الشباب
وأحلام الصبا الأول، جذوة الفتوة الباكرة وطفح نزوات لا يحد.

دار المركب دورته وفي غمار العاصفة سمع حفيف المحار مع هدير الموج، والليالي حبلى
بالمجهول والأهوال. رمى شبابه دون إبطاء وفي الخاطر ترقد سناء، فتاة تغتسل بالبرتقال
أحداقها ويتوسد البنفسج خصلها، أحضانه تتسع للجميع، والشرع يطوي المسافات يخترق
سما عميقة الزرقة، تهتز الروابي يندلق الزيد والموج يعانق الشواطئ والحواف، يأتي الرذاذ مع
ألوان قوس قزح أرق من رقراق السراب، ينداح المدى، يتساقط الندى وتتلأشى الزرقة في

السديم، الظالم يهبط والساعات تمر كثيفة، والحزن يطبق على الكون كله والتعب. الاشتياق

إلى الحنان واللطف وبيت مليء بالأطفال وامرأة رغدة كحقل قمح تنتظرك لتمتزجا وسط

الليل بأريحية. يبدو أن أيام الشقاء تتواتر دون انتهاء والعالم حافل بالمآسي، طائرات تنثر

الدمار في ربوع كابول وتقذف أتوناً من النار في قندهار.

اعتاد طلب رمي الشباك اليومي، انحنى نصف عار، الماء يغمر جسده الفتى النحيل، وجهه

تغازله موجة هاربة، بكفتي يديه يحيي السماء والبحر وسناء. جلس تأمل، استغرق ثم استسلم

ذاك الإحساس المفعم بالسرور، تجاذبته الأشياء، انسجم معها صوت الموج، هسيس

المحار ودييب الحصى.

الحي الصغير كان قاسي القلب ومليئاً بالنفاق، كانت تلك العينان اللتان تمتلكهما سناء

جميلتين، ورقة شعورها ووجهها الجميل يبدو كأنه يشع من داخله ضوء. طلب قلبه الرهيف

انصرع للتو، وعندما قذف عصام نفسه في طريقها لقنه طلب درساً لن ينساه الوغد، أمسك

قوقعة سمع صوت الموج وقوس قزح واندلاق الشفق، حكّت له حكايتها فتح لها قلبه

وتأوهت ولاذت بالصمت، روت له جميل الحكايا، انفتحت شهيتها للحديث كان دافئاً

أرجوانياً ومفعماً بالحنين، تشعب الحديد لبطون وأودية وشعاب. أبعدها قليلاً اضطرب قلبه، لم يسعه الشاطئ، رماها في الرمال سمعها تواصل حكي الحكاية.

سواء لها علاقات حميمة مع سوسن وهالة ومنال وأحاديث تفيض بالشجن، عندما أطل طلب في حياتها صارت تضيع الوقت بالحديث مع رفيقاتها عنه، وفي يوم فارق في حياتها التقاه، وبما أن رماحه الجموحة امتطت خيول الريح فقد صعب عليها فهم ما يكتبه لها، وعاملها كطفلة مدللة. كأنها في جزيرة نائية، سناء فارق والدها أمها وكانت تجمع الصدف والمحار والقواقع، تخرج الدر والمرجان كأنها تبحث عنه، وكان السمك في الماء وفيراً.

عندما وجدته وحيداً يناجي الأمل، رنت إليه فكان أن نبتت في قلبه نبتة خضراء وبالحنان والأشواق نمت. رقتها الزائدة المعبرة وصمتها الدفين، وهكذا دق قلبه وارتفع الوجيف وصارت الخفقات تترجم حديث روحه الجياشة. البشر معقدون ويصلون أهدافهم بطرق ملتوية لا مكان للوضوح وهذه الحساسية. سامحت سناء أنه يذكرها بالحاضر وهي لا تريد أن تركز لماض مليء بالشتات، طلب مليء بالأدب والحياء كسناء تماماً، إلا أن شعوره الطاعي لم يجد أرضاً خصبة فصارت تنهش خياله الأحزان، تواضع سناء وجنون طلب كاد أن يودي بالعلاقة إلى التلاشي، لقد راع طلب أن أحلامه بدأت تنتشر وهو يرجو الخلاص

وأن يعيد سناء إلى تعلقها، لقد غيرت سناء حياة طلب، جعلته يتنازل كثيراً ويجازف عندما فاض به الكيل. رفضه الجازم أودى به إلى شحوب لونه وقيام كثير من الحبيبات على الوجه، مشيراً ناحية منزل سناء خرج طلب كما الريح يود أن يعرف سبب غيابها المتكرر، ما بال أيامه تملأها التعاسة، تساؤلات تورق كما الزهر في البستان، ولكن متى يأتي اليوم الذي يضع فيه زهرة في صدر سناء؟ ويسيرا متشابكي الأيدي في الشارع العام.

تناقلت الأفواه قصة طلب وسناء وعصافير الوادي والأصداف، وفي القلب أسى وفي العيون لوعة وفي الصدر خفقات، وطلب يشرع صدره للموج والريح، والأشعة تنتفض والعواطف تزداد اشتعالاً، والأحلام تترى والخيال الخصب ينغرز، صار يركز الآمال، يضمد الجراح، ويفرهد الأمل، وتتمتم الشفاه أن يتحقق الأمل بين العتمة والحواجز.

سنة أوجه حب للوطن

شلة من الأصدقاء كنا نعمل في مؤسسة خرطومية، لنا كثير من الذكريات الحلوة، نأكل الباكما عند محاسن، ونشرب القهوة بالزنجبيل عند فطين، نغشى الحدايق ونستمع إلى حنان النيل وعقد الجلاذ. سافروا للعمل في شركة خليجية وتركونا للخواء، كانت خطاباتهم الأولى المرسلة تقول:

"عزيزتي سهيلة.. أخيراً اقتنعت أن أغادر الوطن، أحبتك فكرهنتي.. لذلك سأغادر ديار يضمها رسمك، كم حلمت باحتضان عينيك وتوسد التاريخ والجغرافيا والخصلات.. كم حلمت أيضاً بملامسة البرتقال وخطوط الطول، وعادت سهامي تتجرع انكساراتها وتلملم أذيال هزيمتها.. سأترك لك الوطن بكلياته ركضاً من الأسر والدوران في حلقات حضورك البهي، إنه الغدر والدوامات غير المستقرة، لا جديد سوى الاشتعال في أتون العشق، بعد البرء من هذه التجربة التي كلفتني كثيراً.. سأرحل، ليس هروباً وإنما باختياري، أداوي

جراحي وودي وعشقي الكبير.. نظرات الأسي أحسها في عيون الأصدقاء وأنت
تضحكين.. لقد عفوت عنك وبسمتك المضيئة كحد السكين تحرق جوفي.. فالوداع
آنستي وإلى لقاء.

مخلصك عصام"

"مي.. يا أرق من النسيم. غارق في أساي هكذا تودين، تائه في موانئ لا مراسي لها، من
أجلك أحوص غمار المجازفات وأزيل العقبات المستحيلة مستصحباً آلاف الذكريات
ولحظات الألق والنزق ذاك.. لكم قاسيت ليظللنا سقف واحد وبعنادك وشقاي أمسكت
السراب. عيناك فيهما خلاصي وأسري، ومنذ زمن وأنا مهجس بك، تسكين الشرايين
والأوردة، ويتجسد شوقي لواقع تنداح أعصابي وتشد أوتاري كلما أتى ذكرك.. لقد توحدنا
وامتد الزمن الحرون، وأضحت كل الدروب تؤدي إليك، فهل تجاوزنا الخطيئة وكيف يكون
الخلاص.

حبيبك محمد"

"سنة.. يا أحلى من حياة معادة. لم تكن غلطتي أن أقع في أتونك فأنا لا أعرف الفشل..
صداقتي لهم غيرتني تماماً، وفي زمن الغفلة والوهم تعلمت الكثير، المنافسات غير الشريفة،

الانسحابات المريرة والإقصاء.. ووحدني تجرعت كؤوس الأسي ودفعت الثمن حرمان الليالي المتواصل والأرق وأشياء كثيرة لا تذكر.. وصراحة تنقصها الشهادات.. أشياء ألغيت وأسئلة دون إجابات.. لقد شاهدت العجب والحياة مليئة بالمهازل.

أحمد"

"جميلة الجميلات.. ريم. سمعت عن الحب واندياحاته، الأحاديث الطويلة والأمل المضيء كشمعة في مهب الريح، قرأت عنه رائعاً سلساً وشفافاً وهناك من يعتبره حاجزاً للانطلاق.. هل هناك من يستحق حبنا الكبير.. عندما رأيتك لقد أصبت بالحمى، اجتاحني داء الحب والجدب، ذلك الشيء الخفي فيك دعاني، توغل في بانجاس. شدت أوتاري فقل نوم العين، صار للنسيم وقع آخر وللورود رائحة قوس قزح. وللقمر بهاء آخر.. أهذا هو الحب؟ تأمل ودموع.. طريقتك في الكلام.. سكوتك والمشاور الطويلة التي كنا نسيرها.. كنا نعيش الحب معاً وأتمتع بعينيك وأجوس فيهما مستكشفاً شواطئ وأنهاراً.. حدائق وآباراً.. وأنداح أروح عن نفسي.. وأموت أحياء من جديد.. أقترب فأزداد اشتعالاً.. أبتعد فتومض النار لا يتركها الهوى، ليس ذلك بالأمر الهين.. الإخلاص والوفاء.. الغدر والحسد وأشياء أخرى، أوقف كل تلك المسرحية؟ وهل من علاج لهذا الداء؟.

دائماً أمين"

"هالة.. كل هذا الجمال والروعة والوسامة الطاغية.. لماذا هذا الغضب إذن والهدوء؟ كأنك تحملين هم الدنيا كلها. المشية تلك الرزينة ما بالها أأصابها سهم؟ وتلك العيون الناعسة والخذ الأسلان والجيد النضر، خلقت لتكوني أميرة، هكذا كانت تخاطبك العيون، ولو أنصفوك لقالوا ملكة، لكني أراك وقد تجلت فيك صنعة الخالق تأسرين كل من يعرف الجمال، ولكن هل من مجيب. ودامت أيامنا شهداً..

الهادي"

"هيان.. حبيبتى التي أحببت كالحمام هديلاً وتناسقاً.. صوتك ذاك وحميميتك، لا يهملك دخول الغابة والتسكع في ظلالها الوارفة وقطف الثمار الناضجة، وأنت تفهمين أن النظرات أبلغ من الكلام.. حديثك أنشودة لم تكتمل، وخطواتك كموسيقى الجداول. هادئة ومرحة، لم أعرف الإحباط عندما دخلت عالمك، قدك الفارع، ثقتك الزائدة، لقاءنا المملأ بالشجن والحنين أفقدها كثيراً وأنا في طريقي لمغادرة الوطن.. أخذت صورتك وشرائط من الكاسيت أهديتني إياها وبعض الرسائل المعطرة والأشواق.

عزيزكم / فرح"

كانت تلك رسائلهم الأولى للوطن، وفي الأفق تندلق رائحة الباكمبا وتعبق رائحة البن المحروق وصوت وردى يذهب هناك في الأعماق، وصرت متعلقاً بالذكرى التي هي ناقوس يدق في عالم النسيان.

آخر المحاولات

الشمس هي ذاتها شمس أمس حين تشرق كل يوم جديد، وعامر التابعي فتى فارغ الطول ووسيم لولا آثار جدري قديم في الوجه وبرص ناشب في الأطراف. عامر التابعي يهوى التسول والشعر، سافل مريض النفس ومزيف، والكره يجري في عروقه اليابسة لكنه يفقد الوسائل والأهداف.. محدود القدرات بائس التفكير متلعثم الحديث، خير الله صديقه يعرف بالضبط ماذا يريد، فهو صبي مدلل دينه "خالف تذكر"، حاول مخالطة الكبار رغم أنه تخلى منذ زمن طويل عن ناسه ومجمعه وقراه، لقد سولت له نفسه أنه صار كبيراً ناسياً ضالته وفشله وتوترات نفسه التي ترنو للشئات.

عامر التابعي للذين يعرفونه عصبي وعنيد يحب الأكل والشرب، شره وأكول، ويتنفس الحكاية كضفدع حديث الولادة، قال طاهر جار عامر التابعي: لقد بدأت الأعراض فيه

بالظهور قبل عام والضباية وانعدام الرؤية من سماته، التقى خير الله القصير الدميم كيراعة
فقدت قرني استشعارها وصارا كفردتي حذاء، عندها كان للأيام عزف نشاز. لقد زين خير
لصديقه عامر التابعي أن قصيدته الأخيرة ناضجة التجربة وأنه أتى بما لم تأت به الأوائل،
أنها ستحدث ضجة الحقبة وأن الأجيال القادمة ستحدث عنها، فليتم ملء جفونه عن
شواردها، تضخم رأس التابعي وانتفخت الكبد منه والطحال وازدادت موجاته اللاهثة زبدًا.
خلع قميصه وناطح الصخر بقرنيه، كتب الشعر بالسريالية تارة وبالدادائية تارة أخرى وبلغه
الواق واق.

كان ذلك العام وبالأعلى عامر التابعي قال طاهر حاج أبكر، وهو لم يقف من سكره
البارحة بعد لم تكن ورطة عامر التابعي في قراءة قصيدة فجة تهيج غدة الحضور فحسب،
وإنما تعيد إليه قدرته على ممارسة الجنس ما جعله يفكر جدياً في الانتحار. خير الله من
خلف عامر التابعي يزيد اشتعالاً. إن أردت أن ترتقي سلم المجد عليك بسبهم "أولاد
الكلب" عندها ستعرفك الأجيال الجديدة، وسيأتيك الناس زرافات ووحيداناً، وبخيلاء
يمكنك أن تمشي كفرعون تماماً. هكذا أكد له خير الله، لبس الجلباب الشفاف الذي لن
يداري سواته، تدثر به عامر التابعي مزهواً. ولم يصدق كالبدايات راحت الناس تتفرج على

هذه المهزلة، خير الله يلحق الحساء بعد مرور كثير من الوقت ويضحك، عامر المراوغ لم تفده تنصلات خير الله ولا فداحة ما أقدم عليه من أمر، هذا الرداء الشفاف ما هو إلا عري! هكذا قال الصبي الصغير ضاحكاً عندما أراد أن يضع وردة حمراء على قميص عامر، كاد عامر التابعي يموت حنقاً وغيظاً بعد أن ربت على كتف خير الله. إن تلذذك هنا ما هو إلا قلق وانشطار مخلوط بالثوم ليبدد رائحة نفاذة.

خير الله الساحر أضفى مزيداً من الفلفل على المرق ولم يشعر بوخز الضمير، ولكن الققط ماءت على الجدارات المجاورة. عامر التابعي لا تعرف روحه التحليق في الفضاء عالياً، ولا البسمة الرائعة عند الصبايا، ولا تغريد العصافير عند المغيب، دائماً نظراته الهائمة تلاحق حقيقة ضائعة بعد إدخال خير الله له في شرور لا تنتهي وشباك لا أول لها ولا آخر. وبما أنهما لا يعرفان الحياة الهادئة الجميلة فقد افترقا.

ابتسم عامر التابعي وتحولت ضحكته الباهتة إلى انفجار. شل رأسه أمسك كأسه بكفتي يديه جرعة كادت تؤدي لهلاكه، وقال القصيدة الأخيرة التي انتظرها الجميع عامر "المسخوط صار مطموساً"، نهق بقصيدة كالخل وتابعت الأعين خير الله الساحر متسللاً يحاول أن لا يراه أحد، تاركاً الجميع يرمي عامر التابعي بالطماطم الفجة والبيض النيئ

والكراسي. لقد اعترف بالهزيمة وقفل راجعاً أقصى الشمال يتلفح الحسرة والندم عامر

المباهي والمتهور عديم الاحترام.

بأثر فقدك شعرنا

قابلتها صدفة وإذا بي أقع في حبها إلى الأبد، ظللت أرسمها في خيالي، العمر كله وهي

تسكنني. تحدثني بلهفة وبدهشة أحياناً مستندة على ذاكرتي المنتصبية، تلقي لحظاتنا

المبعثرة وبقامتها المميزة تلج الصمت، تكسر دائرة الضوء وتستدرجني للحديث. أقف إزاء

جنونها تحديها والإغراء، وتشهر في وجهي صدراً قافزاً. أرفض أن أستسلم أتأملها وأمتلى

بالحنين، أتذوق الحياة بمهل تشير إلى عينيها فأرتبك وأغرق في صفائهما، وتلك البراءة ترنو

إلي، يدندن البؤبؤ موسيقى عزف منفرد.

بابتسامة مرتبكة تكسو محياها تتحدث عن أزمنة ماضية، رحت اكتشف شفيتها المكتنزتين
وخصلات شعرها الفوضوي. قالت لي: في قصتك الأخيرة لم أكن تلك التي وصفتها. قلت:
هكذا أراك بهذا الشموخ والتواءات المنسجمة وذلك الألق، قالت: وتلك الغابات التي
تحدثت عنها والمنحنيات والدروب والوديان التي تحب السباحة فيها، أغراني حديثها
الرقيق، لم أحب أن أقطعها تجولت في ذهنها راجلا، أصبت بالدوار وبالخوف وبمشاعر
متناقضة. هي بسيطة وتعرف أنني أحبها وأحلم بها وأوقع اسمها على دفاتري. قالت: إنهم
يقرنون اسمي باسمك حتى ملامحنا صارت تتشابه، قلت مذهولا: ازداد شوقي إليك
وأخاف من الفراق وتعذبني لحظات.. أقنعها وضعت صورتها في مفكرتي، وسجلت صوتها
في شريط كاسيت أحمله أينما ذهبت وأنا أتأمل حالي بذهول. كنا ملتصقين ملامحنا تبدو
واحدة وكذلك عواطفنا وأشياء أخرى.

كل ما أتذكره الآن ضحكاتها والशल الأزرق وكحل على العينين، لم أصمد طويلا، انتقلت
إلى الحمى وصار بطني مذاق الحنظل، امتلأت بالحرق، الأيام التالية صارت باردة، كنت
أظن أنني قد تزودت بحبها وتحصنت على مهل بعشق هادئ.

لفني الظماً والانتظار.. تحاشيت الرغبات المكبوتة ورحت في تناقضات وأضداد، لم
تسعفني الشفتان المكتنرتان ولا العيون الصافية وامتألت بالصراخ ما أجمل أيامنا تلك، الزمن
ركض سريعاً وتربص بنا المحن وتتأمر علينا الظروف. لكم افتقدت فنجان القهوة بالحليب
وعطر سمسار وعثمان حسين في قصتنا وأنتِ تربتين على ظهري، تحاولين ترتيب مظهري
وتضعين شيئاً من الأحمر على الشفاه. بصمت على قلبي بال عشرة، خفقت الشغاف وطار
الود على الأرفف، قلت بسعادة فالحياة التأمل وبحماسة سطرنا مشروع حبنا الدائم.
لم أخف فرحتي يومها وسررت أنتِ كطفلة وجدت لعبتها المفضلة، تأثيرك ظل يجري في
دماي، وها أنذا أواجه المصيبة وقلبي أضحي مهياً للعواطف والزوابع، تلقائيتك وتلميحاتك،
تعرفين أنني لا أرفض لك طلباً. وانتقلنا من حال إلى حال، ذاك التمازج ولحظات الجنون
والتسامي.. أيمكن أن نلغي كل ذلك؟ لم أشعر بالتعاسة في يوم من الأيام كحالي الآن
اقترفت، تجرعت، احتسيت.

لم أزل ممتلئاً بالعشق والود والحنان، وها أنذا أفرد مساحة في القلب للحب عسى أن يتسلل
منها ضوء يقودني للجنون وسأكون سعيداً بذلك، أن الألم حينها سيتمدد ويملاً كل
المكان.

أيام سنطراها بالخير

عنود الساذجة تتبع نهج فلة التي تحقنها بترياق الإشاعات والشر ما يحيل نهارها لليل وهي

القادرة على الاندفاع. عنود لا تستطيع أن تقاوم مكرها وطغيانها الكاسح وإسهاماتها

المبتدلة، فلة الوضيعة يؤلمها وضاعة أصلها وفشلها كمعلمة، وها هي تقدم الجهد لتكون نموذجاً للأخريات، والعنود الفاجعة لا تعرف الحقيقة حيث إنها استخدمتها لتمرير أغراضها المهمل منها والصريح، وتنسب ذلك لنجمة المغامرة وغير المألوفة ممارستها النادرة، وفي ظل تفاقم الخصومة ينسين أنهن بنات ناس يعملن في مكتب محترم يقمن بكل ما تقوم به نساء الحوارى والأزمة الضعيفة من شناعات، يتحدثن في الخصوص والمظلم والمسكوت عنه. آلاف الصور لتلك التي ولدت سفاحاً ولم تستعمل الواقى، وأخرى مصابة بالإيدز وعشرات الأحاديث من الغمز واللمز لتلك التي تأتي تحملها سيارة كرسيدا، هذا الثلاثى الجريء ككفريات شاحنة قديمة يترجمن سياق الأقاويل ويصدقنها، ربع الجهد المبذول في الخساسات كان يمكن أن يجعلهن يطورن عملهن، وها هن لا يفرقن بين النمط والمنهج.. وفي رحلتهم الأزلية نحو القاع.

أن تسكت عنهن قالت وداد: ذلك ما يقلل فعاليتهن وإن شئت فإن ما ابتكرته من تخصص في تنغيص حياة الناس لا يحتمل، وذاك الالتباس شرانى النزعة جعل استخدامهن وعلاقتهم بالرئاسة مربكة وملغزة. إيقاعهن السريع جعل درجة الحدة الانفعالية ترتفع، وها هن لا يعرفن الغناء، حسدهن ظهر على الوجوه سواداً. أن تكون غير موقر للكبير أو محترم للصغير ذاك

ما ضيع أيا منا الجميلة، وصارت القسوة المبتكرة وتحويل الحب إلى كراهية ديدن نفوس
مشوهة فارقها القبول. البنات في المكتب صرن يتفادينهن وهن يتمادين قاهرات عاجزات
عن ابتكار شيء مفيد، هذا الأذى المنبثق من مفاهيم حاقدة جاهلة وسوداوية ومندرجة في
إحباط عام، واضطراب مواجه هذه الكائنات الوسخة يجعل هوسها ضجيجاً. أن يخفق
قلبك للحب بتناسق سلس تلك لغة أخرى لا تعرفها العناكب، والمراكب تسير بالأسود
والأبيض ولولا قبح البومة لما عرفنا جمال الطاووس. لكن هؤلاء المختلفات المعربدات
الشنيعات السادرات في غيهن سينتشن بالفتنة وبسحر الأماسي، وستسير الأمثلة
الأضحوكة الأكدوبة. ستتكشف الأشياء.. حتماً ستشرق الشمس وبوسعنا حينها بسهولة أن
نحدد أماكن الفاكهة المعطوبة، وسيكون جميلاً أن نرمي بها بعيداً لتسود العافية وينتشر
الضياء، سينزاح الطارئ وسنطري كل أيا منا تلك بالخير.

نفر من الجن

كان صالح سيئ الحظ.. ماضيه التعس كثر في الأقاليل، تشعر بفضول وهو يحكي عن كيف أن موسى أتى معلماً شاباً من الخرطوم لكوستي في منتصف الثلاثينيات وكيف أنه استأجر ديوان إدريس إمام مسجد السكة حديد، صالح المهتم بالتفاصيل يحكي حكاية موسى التي تندرج كخيوط من مترار، لإدريس ابنتان فاطمة وآمنة.. فاطمة كقطعة سكر وآمنة ككوب من العسل صاف وشفاف، حدثها موسى عن العيد هناك وعن الأفراح وسعادته هنا وهو يترنح من السرور، الحاج إدريس خشي على جاره من الافتتان خاصة وأنه لم يزر أهله لسنوات، فاتحة موسى في أنه يريد آمنة الرائعة زوجة له، وافق الشيخ على أن يخبره سراً في تلك الليلة التي غاب عنها القمر وأنزلت السماء أمطاراً مجنونة، أخبره إدريس أنهم عائلة من الجن المسلم، شيء كالاشتعال لأمس قلب موسى، لم ينطق ببنت شفاه ولكنه أمهله أسبوعاً ليعطي رأيه، ولكن موسى المعلم الشاب مرض شهراً بالحمى، لم تكن غلطة إدريس انكشاف سره الذي لم يعرف به أحد.

طوال حياته كان موسى مستقيماً مهذباً وحيياً، وآمنة لم تعرف الفضول عيناها الجميلتان وطريقتها في الكلام وفتانها ذاك الوردى مما جعلها تبدو في عينيه عروساً.. تفاصيل كثيرة مرت بذاكرته، وعندما شفي قال لجاره الطيب إدريس: إنني موافق بشرط أن لا تروني

أفعالكم الجنونية، وقبل إدريس الشرط وتم عرس لا ككل الأعراس، شارك فيه أهل المدينة وتحول فرحهم إلى مسرة وصار لضوء القمر بهاء وأمطار كوستي ورذاذها دفء وراحة، وأنجب موسى ابنه عبدالله وزينب.. لقد اشتعل حبه لها.

صالح يحكي الحكاية كما يعرفها تماماً، وهو الذي يخلق الحكايات ولم يضيف إليها شيئاً هكذا قال موسى. في مرة ذهبت آمنة وموسى لزواج أحد أقارب آمنة في حي الرديف، الاحتفال في مكان عال تشتم فيه روائح العطور والأكل، وقضوا ليلة انتظروها كثيراً استمرت حتى مطلع الفجر وعادا للمنزل ينهكهما التعب، أويا إلى فراشهما قال موسى لآمنة: أطفئي السراج المعلق في رف على الجدار، قالت له: أطفئه أنت، وتجادلا ونفذ صبر موسى وهو يجادلها إلى أن حققت رغبته مدت عنقها لمترين أو يزيد وأطفأت اللبنة على الجدار، انقلب موسى وشاهد الموقف، تملكه الغضب وانتظر بزوغ الصبح، انتظر الحاج إدريس العائد من صلاة الصبح، انتظره حتى قضى صلاة التطوع والأنفال وأخبره بما رأى مطالباً بتنفيذ شرطه. ذهب المعلم موسى لمدرسته المجاورة غاضباً وعند رجوعه آخر اليوم لم يكن مستعداً لتبريرات الحاج إدريس، وهكذا فتح باب المنزل لم يجد أحداً سوى ما يخصه من متاع وابنيه أحمد وزينب، ذهب الحاج إدريس لحيث لا يدري أحد ومعه ابنتيه آمنة وفاطمة

وامتلكت المعلم موسى الحسرة. عاش بقية عمره يحسب الخسارة، امتد به العمر طويلا،
ربى أبناءه أحسن تربية وزوج البنت لمغترب بالإمارات وهاجر الابن للعمل بلندن، وبقي
المنزل كسرايا في حي السكة حديد بكوستي، تقادم عليه الزمن وتساقط طوبة فطوبة لا أحد
يقر به، هكذا انتهت حكاية موسى المؤثرة للغاية والمفجعة.

مستودع الدمى

في غرفتك المغلقة دائماً يوجد تمثالان لزوجتك ومديرك العام، كنت كثيراً ما تشبعهما ضرباً، في اليوم مرتين. صباحاً تزقزق العصافير، عند خروجك للفناء ترى الورود تحط، حمامتان تلتقطان الحب بحبور وتمارسان العشق في العراء.

هناك مباراة لفريق الناشئين واجتماع لمجلس الإدارة ومنتدى في نادي المدينة العتيق، قرأت في مفكرتك المهترئة ورحت تلتهم حبيبات الفول المصري مع الخبز الجاف بنهم. أغنية ناعسة توقظ إحساسك، وحب سيدة لا يضاهاى، وحملك البارحة وأنت غارق في العسل وغربلتهم معزتك الوحيدة، تمطيت لتبعد السائل الذي ما انفك يتسلل بلا مبالاة. ما بال الأيام تمتاز بعطن دائم وتكرار هلامي، الصحف تحلل الراهن بتثاقل مقيت، يبدو أن الشمس أذنت بالمغيب، الماء في المواسير عصي عن الخروج، رائحة الشواء تنساب من عند جارك البطين تملأ أنفك، تمثال زوجتك المتخم ومديرك العام ذي الأنف المتضخم صورة من القبح تحيط عالمك.

ضربت تمثال زوجتك المطاطي بعنف تنفست الصعداء، تلاشى إلحاحها الحاشد، بنت الجيران تستقبلك بحفاوة كسيدة تماماً، نظرات التقدير ولحظات السعد التي أجمل من الأمانى تطوف حول موكبك المزدان بصور بهية يصعب نسيانها، ضربت مديرك العام الذي

مد لك يد المصافحة، ابتسمت له واستدرت خارجاً ثم عاجلته بكلمة أخرى فغشيت

شآبيب قلبك الفرحة.

الأصدقاء الحلوين يدعمونك ويرددون لحناً شقياً لفنان مترف. عندما تزوجتها كانت رشيقة

كالبان، جميلة كرييل حلوة التقاطيع ولدنة، صارت الآن مجموعة متراكمة من الشحوم كبقرة

من القطيع، في لا وعيك كنت تحس بها شجرة تبليدي عقيمة وباردة، وتضع البسملة

تعويذة تقيك حثيمة المشاغبة، ما علاقة الدم الثقيل بالطف المصطنع، شكرتها وهي تضع

صحناً من العصيدة الدافئة على منضدتك الوحيدة. فعل مديرك العفوي في تشتيت التركيز

يجعل إصراره الساذج ديدناً لا يخفف من عبء ثقالة متناهية، مزيد من القبح ينضح. بعين

فاحصة رحمت ترصد تطورات الانفعالات الأخيرة، قطيعة وحصار كالوطن تماماً، لم تترح

رغم التمثالين المطاطين اللذين يتوسطان الغرفة المغلقة. سيدة تنظف المناضد والموائد وتعلق

الستائر الموشاة وتحلق فيك بشغف. طيور السعد تنطلق من صدرك طيور الجنة الصغيرة

الملونة وعصافير الخريف.. أطفال يعانقون أهداب سيدة، والوجنات في الرموش الناعسة،

زغاريد داوية، وفي البؤبؤ صحن من الفاكهة، وفي الساعدين لعب ومزلق وورود عطرة

وفراشات تطير. الإيقاع يبدو سريعاً، الصحف تركض خلف الأحداث التي تركض خلف

المذياع الذي يركض خلف التلفاز ومن ثم تغلق الغرفة. تمثالان وشمس آيلة للغروب، وزوجة

كالبرميل تماماً وسيدة تفسح مجالاً للحضور توزع شربات الفرحة بروح الموز، وابتسامتها

الصغيرة تعلو وجهها الصبوح.

كوايس راحت تنتشر، عطن اندلق وبكتيريا تنهش الجثث، تفتح الغرفة شمالاً، ريح باردة

تهب، تزيل كل العطن وتلطم وجهي التمثالين الدميمين. الزهور ترسل أريجها المعطر مناسباً

ورقيقاً، الأصدقاء يصنعون حفلاً بهيجاً ورائعاً. وتحكم غلق مزالج غرفتك التي اتسعت لتمثال

ثالث.

مرثاة لخاطر حبيبي

سرعان ما أضحت فتاتي إنساناً عادياً، يا لهذه الملاءة الزرقاء البليلة، يا لهذا الحديث
البريء العذب، والأسنان تشع كبرق خاطف. قررت السباحة في محيط حبيبي، فقد الأنف
الشامخ بهاءه وخمد صموده، وما عاد لون القمح يستهويني، وامتدادات الصحارى وذرات
الرمل الصفيقة بفعل الريح.

ما لهذا الزمان الأرقط بشتى الألوان يجيء كالفرشات الحائرة في ليل يناير الدبق؟. عاجلتنى
الأيام بصفعاتها المتتالية. صوتها العالي وهي تغط، تتأوبها المقيت حركة أظافرها وهي تمررها
على جلدها البارد، سكونها الغبي واستكانتها البليدة وسكوتها السمج.

صارت فتاتي إنساناً عادياً، كفنجان من القهوة الدافئة ترك في العراء حتى تكلست أطرافه، يا
لغدر هذه الدنيا، لحظات الهدوء والأمان تلاشت كقطرات الندى على أطراف الحي

الغربي، خبأ البريق، اكتالت أيامي بالرماد، وامتألت الخيمة بصفير الريح، ما انزاح الوتر ولا
انقطع الصاري وما انفك في النفس رمق. حبات الرمل تصفق الوجه المعروق، يبست الشفاه
نزفت دماً، قفزت شوبهاتي النزقة من أمام خيمتي الوحيدة في الوادي.

تطلعت العيون إلى السماء، ما عادت فتاتي تثير الجوارح، أضحت أكثر من عادية، حديثها
المعاد وأسنانها الخامدة ولا بريق، وما عاد للشفاه لونها وطعمها وملمس الندى الرقراق.
أصبت بالانهيار، تخلى عني الرفاق، وأنا كالمعلق هربت دماي كلها وعمني الشحوب،
كنت أحيأ بالأمل، عشت أيامي وأنا أحلم، صارت حياتي حلماً كبيراً ما تحقق منه وما لم.
أدخل الحلقات وأخرج أعرف سر الدوائر المغلقة، التقينا صارت أيامي كابوساً مبهماً، حلقة
واحدة تضيق باستمرار فقدت.

بها الحديث واخضرار الأيام وندواتها يا للهواء الطلق. صغار الشياه تفرقت، الحياة قصيرة
وجوانحي تخفق، وأنا أغزو حقول القمح العامرة بالدفء والحنان، صرت أخترق الحنطة
وفي القلب سكون وانكسار، يحن للمرافئ المبهرة والغرف المغلقة، ولسهول لم تطأها
الأقدام، صوت الموسيقى الهادئ البعيد.. غابات الأبنوس الاستوائية، لون المغيب والشمس
تجرجر أذيالها.. العيون التي تلفحك بسحرها الغريب تتوالد أجيال وتنم عن ود مفقود، ما
عاد الإيقاع الصاخب يثيرني، قلعت أوتادي وخيمتي وشددت بعيري وأزمنت الرحيل.

الحلم في الزمن الرديء

المدينة تبتلع وحولها وتغوص في الماء الآسن، تحتسي ذرات المطر في نهار خريفى متأخر،
نقيق الضفادع، نقر العصافير وهمهمات الرجال العاطلين عن العمل، بائعو الشحوم والزيت
الوسخ والبطيخ، تطفو على السطح روائح التفسخ والنتانة، جاء الفتى يلهو بروحه الشفيفة
يقطف زهر البرتقال على جنبات الطرق، في الأزقة والحواري المنسية وأطراف المدن
المتخمة وتحت سور السجن الكبير وأشجار النيم الشائخة. تطفو الحكايات الشجية،
أسرار البيوت العالية وقطع الأثاث النادر ودمى الأطفال الحبيبة ولهفة أم حنونة على ابنها
الراحل، الرجال المترفون يرتشفون القهوة ويمجدون السلطان وآخرون لحقهم العار، مرغهم
التيه بالتراب، المغنيات الساقطات ولاعبو الكرة المائعون والجنود الميامين. والمدينة وحش
لا يعرف التراجع ترفل في ثيابها المشوهة تستقبل العيد، نزل أمر جلل وقع السيف وغلب
المذبوح الرقص، واختلط الحابل بالنابل، مدرعات الجيش والابتسامة المزيفة والأب المدلل
والأم التي فقدت رشدها، المستودعات المتخمة والبطن الخاوية في الأحياء الفقيرة، الفتى
الوسيم يلثم صبايا كالورد، يخطو نحو المجد بتؤدة، يرسم خطوط الزمن الآتي وقلبي معه
منسوج بضياء من نور. رقيق كالنسمات الحية، دخل أيامي هكذا عنوة ومنها خرج وجهه

الزاهر بالألفة المفعم بمسحة من الحزن الأبى أكبر من شبابه الغض، لكنه زاهر أيضاً

بالبسمات والأفكار والأرق.

لازمني شعور بانعدام القيمة، إحساس يملؤني كلما فقدت عزيزاً وفي خاطري موت القدرة

على خلق حياة جديدة، لا أستطيع أن أطفئ مواضع الأضواء في نفسي الأبية، الأشياء

الرائعة لا تلبث أن تنقضي، تذوب في أفواهنا دون طعم وتصير أيماناً هروباً من أنفسنا ومن

الأشياء والأحداث. إنني أتمزق من الخوف والقلق كأمل باهت لمع في حياتي وعندما

حاولت الإمساك به تلاشى في أغوار المجهول، وفي النفس شجون، وفي الأيدي لحظات

وضيئة لا أكاد ألمسها حتى تختفي، ومن ثم تتسلل إلى حياتي كالضوء الصافي هادئاً دون

استئذان، فرض نفسه علي بالقوة وعندما اعتدت عليه وبادلته فيض المشاعر، ذهب فجأة

كما جاء واختفى في أخرج لحظات الشوق والبوح والعطاء، عندما لم تستوعبنا الأحاديث

الشجية وشعب الأسي. الشمس ترسل لهيباً حارقاً، ندمنا على انسياب هنيهات الشفق

الأحمر، وكانت سواداً لأمس شغاف القلب المرهف وعلقت رواسب من الماضي، شوائب

تود مزيداً من الطهر النقي.

أمل تعزف لحن الوداع

برج الجدي

لهيب يستعر بداخلي.. يشدني نحو أمل.. نشيد عشاً نملاًه بالأطفال الرائعين الجائعين،
ويسافر الدخان من تلك الحرائق، تعلق عيون أطفالنا الفترينات المعبأ فيها أكواس
الريغيف الفاخر.. تضاء أعمدة الرصيف.. نيون الالتفات البراقة. ينوء الوطن بالصقور
الفاسدة، وتهاجر الأفراح إلى البعيد وتعم الأحزان.

برج الأمل

ليس لي إلا أنت، أمل يجدد ليالي المدينة إلى سابق عهدها، تهجر طعم الجرجير البائت،
يضميني طيفك وتظللني ابتسامتك، يجري دمي هسيساً يفرهد فيه الحب، وأقول شعراً من
نزيف القلب صهد الروح وبريق الذاكرة.

برج السفر

وأفرد أشرعة الرحيل.. لم أودع أمي وهي تعرف ابنها فتى غض الإلهاب تنقصه المغامرات..
خلجاتها صلدة كحجر عتيق، هادئة كسطح نهر ساكن، ونحن نداعب مراكب الرحيل

نتابعها بؤبؤ العين تدهش الصبية، أمل الراعبة الجمال تظل بأهدابها الناعسة تداعب

الخلجات الجوانح.

برج السعد

ينتصب الشراع يستوي على سوقه في وسط المركب، تصطك الأرجل وينداح العشق لنقطتين

تستحيلان لزهرتي شقائق النعمان حمراوين عند الشفق، يشق المركب عباب النهر، تصوير

الصبية أمل امرأة مكتملة، يضحى السفر الطويل رائعاً مهذباً وأنيقاً.

برج العقرب

طفلا مشاكسا صرت، وصلتني الرسالة وأثر صافرة تشق عنان السماء، تخرج أمل تنتظرني

عند الشاطئ، نترك المدينة خلفنا، نرمي الشباك نشعل الحرائق ونطفئها أحياناً ونواصل

الإبحار. كلهم ينشدون رحيلي، أمي بوجهها الصارم، أختي العابسة، ونداء صوفي بتمدد

الخطى إلى الآفاق البعيدة.. أمل تعزف لحن الوداع.

ريم تخترق حاجز الصمت

لون فاقع

ريم كشمس تشرق تارة فتغرق الجروف والمزارع، وتغيم أخرى فتسقط النساء أطفالهن
والمراضع. تظهر ثم تختفي، الوجه رائع كمرآة مجلوة والعينان حلوتان كمها.

لون غامق

وكان أن ودعتها، سكبنا دمعاً هتوناً، نبتت الدموع بنفسجا وياسمينا وفُلاً.

لون قاني

عند لقائنا الثاني عضت بناناً مخضباً فاستهامت العصافير على أعشاشها أزكت جذوة
الوجد، وتمكنت لواعج الهوى وداً مفعماً بالحنين.

لون ناصع

القد السمهري.. الوجنتان الأسيلتان والشعر الفاحم، الكون كله تجمع في بؤرة. لكم هو
قاس صهد العشق وشعلة نار الوجد وأرق عيون متيم واحمرار مقلتيه.

لون فاتح

وذهبت فكرة أرجحة الأطفال إلى البعيد المتأودة ذات طبقات البطن المطوية، وأتت ريم

مخترقة حاجز الصمت. طفلة بهية أسيلة الخدين نلهو، هيفاء تمشي الهوينا كسحابة

خريفية توشك على الهطول، حديثها الطلي جعل قبيلة الهائمين بها يقولون نعم لحقوق

الإنسان، لا للنظام العالمي الجديد وضرب أفغانستان، فلتمت الجمرة الخبيثة وال تسقط

كابول.

خاتمة

إن نساء العالم لم يلدن كريما.. جمال رائع وحسن أخاذ ودلال وغنج فهي حورية أتت في

الزمن المرير..

جاءت كما تشتهي.. وخلقت كما تريد.

آثار باقية

كم هو رائع رصد تعابير المرأة التي نحب، النظرات المتحركة للمناطق الأكثر حساسية، شم الرائحة، المصافحة الحميمية التي تعرف منها خلال ثوان مدى قوة الحب.. دخلت إلى عالمها الأكثر أنوثة، كل شيء بسيط رائع ومختلف. كأني أولد من جديد.. هل تتذكر طعم التفاحة الأولى، أو طبقٍ من الآيس كريم يهدى إليك خصيصاً. جلست على حافة السرير في منزلها بعد أن دعنتني لمشاهدة منافسات كرة القدم الأوروبية، جلست كقط متحفر خوف أن تفوتني أدق التفاصيل، كوب الماء البارد الذي قدم إلي له طعم خاص، الترحيب الرهيب وشوق الروح يتقاذف دون ترتيب، لمسات الأيدي لم أنسها طول عمري، وعندما أغمضت عيني كانت بؤرة تفكيري في تلك الحميمية، لقد شاطرتني هذا الهفيف.. لم أحسم أمر حبي لها، شيء يتصارع في داخلي أن قف، لقد خرجت من حب فاشل قبل شهور. وها أنذا لا أود تكرار التجربة كنت أتوخي الحذر مما أوقعني في المصيدة أخشى الاختناق، وكأن كل شيء كان قد انقضى سوى أن أقع في حب جديد، حصنت قلبي.. ولكن عينيها تحتضني بعاطفة غريبة.. أنظر إليها فتتهتز.. هل هي مغامرة وسرعان ما

ستنتهي؟.. تمهل وانتظر ماذا ينفع الاستعجال، صوتها الخافت والمداعبات.. بريق ضوء
لعربة يأتي من البعيد.. هي ليست خائفة.. أحاطتني بكرمها الفياض، أغرقتني في عناق
متخيل. لها خبرتها ولي تجاربي. وهكذا رحنا نترجم الرغبات لتصرف.. هناك شيء جديد لم
أعده، لم أضع تصوراً ولكننا نعرف أننا نحب بعضنا بعضاً ونبحر معاً في نفس الاتجاه.
عاطفتها الجياشة وحنانها الوافر. تحركت نحوها بثقة وكنت أتمنى البقاء إلى جانبها إلى
الأبد. أن تحس بالتجدد وبإعادة الأشياء المفقودة وبالبراءة، وأظل أحكم بعمق، كأننا
نتعارف منذ أمد بعيد وها نحن نعيد ترتيب الأيام من جديد. ذهبت لمنزلي المجاور لمنزلها،
كنت أعرف إخلاصها وكيف يمكن أن يدوم حبنا.. لقد تغيرت الأيام وصرت أبحث عن
الحب وأنا أفتقده المرة إثر الأخرى كأخرق.. وأشعر كالانبثاق مع كل حب جديد أداري
جراح الحب المنقضي، آمل في التثامها. وجلست أكتب عن حبنا.. من يجرؤ أن يخبيئ
الكلمات. بالليل جاءتني كما توقعت تماماً وأنا وحيد، دخلت عليّ بجسدها الرشيقي
ونظراتها المؤثرة بقميص شفاف وعطر جذاب، جلست قربي على السرير محاولة إيقاظي. لم
أكن نائماً تماماً ها هي خطت الخطوة الحاسمة. كنت عطشاً ومتعباً، أفكاري عارية تماماً
لم تكبح جماح مشاعرها أمسكت بيدي احتفيت بها، ساعدتها في تغيير رغباتها.

حدثتني عن فظاعة حياتها وعن أول لقاءاتنا الشعرية وطفنا في بحر من الأحلام، أمضينا لحظات سعيدة وتعاهدنا على ألا نتخلى عن بعض أبدأ، ضحكنا لتلعثمنا معاً ذاك اليوم، وقررنا أن نكون صديقين، وعندما ودعتني قرب شروق الشمس عند الباب تعلق قلبي بها أكثر، لقد قررت أن أوصلها رغم الضوء الذي غمر الكون. الفجر تواطأ معنا وكذلك عصفوران مغردان على شجرة الليمون في منزلنا، تهمس إلي أنت مجنون الوقت لا يسعفنا في اتخاذ قرار، وها هي تبتعد بعد أن تركت جزءاً منها على كل وردة بالمنزل، وها هو عطرها يجتاحني، ومكان جلوسها على السرير ما زال دافئاً، حتى الكوب الذي شربت منه ما زالت رائحة أنفاسها فيه.

حكاية بنت اسمها كلتوم

كانت مدللة في صغرها تهشم الأواني الخزفية وتركل الأشياء المنزلية، يزجرها الأب تنظر الأم إليه شذراً فيطأطئ الرأس تراجعاً وهزيمة.

كبرت البنت كلتوم، أعجبتها نفسها صارت تمشي في دلال.. واختيال، للحق أنها جميلة بالسن المفقودة في انتظامه فمها وذلك الخال الموسوم على صفحة الخد، والشامة في وجهها الوضيء تضيء عليه نوعاً من الرونق والروعة والبهاء، وذلك الحسن الهادئ الذي ينسل إلى الكيان كله يصرع الألباب ويحتل الفؤاد والخاطر، وهي تنعم بأنفتها تلك وبشموخها ذاك في المدرسة والبيت ثم المكتب، دائماً تسجل الانتصارات الباهرة في كل معركة من معارك الحياة التي تخوضها، وبما أن نهجها لا يعرف الهزيمة، كانت أمها تفخر بها أنها صورة منها الخالق الناطق وهي المنتصرة أبداً في جيل لا يعرف الهزيمة. قال جدي إنها من عائلة "الجوابر" لا يلجون في أضاير شائكة إلا ونالوها، إن كانت في الثريا أو

دونها شوك القتات وبسرعة يتهيأون على واقع الحال وكأن شيئاً لم يكن. إن الحياة غابة

ملاى بالصراع والبقاء فيها للأقوى وللأجمل الذي يحني رأسه للعاصفة.

كبرت كلتوم وتعمت عليها رؤى الحكايات واختلطت السبل، امتزجت القيم والتقاليد

بأحلام المصلحة والطرق الخاصة التي تملأ الجيوب وتنفخ الأوردة.

وكانت الحكاية..

كلتوم البنت الوسيمة موظفة في مصلحة فيها ما فيها، روائح الأحاديث تعم أروقة المكاتب

وتنتشر في السلالم ثم الأزقة، كلتوم البنت الشابة الجميلة التي يحبها الجميع جرفها السيل

وماتت فيها كل أحاسيس البراءة، ورأيت فيما يرى النائم أنها تزجر رجلاً خمسينياً تماطله أن

يذهب ثم يجيء لتقضي أغراضه لأيام هالكات، كان تأرها، ما عرفت التسامح يوماً وهي

الرائعة كضياء قمر أربعة عشر في رمال كردفان الناعمة.

وجمت للحادث المترع بالأسى وهي تمسح من على جبينها حبات العرق في نهار يوم

قائظ. كانت حادة في ذلك اليوم وتغلب عليها وهج انتصاراتها الساحقة على الفراشات

المتساقطة في بهرج ألوانها الزاهية، وجمالها الأخاذ ذهب كسحابة صيف، يومها كبرت

الشامة التي في وجهها واتسعت، عمت الوجه كله بؤرة من الحبر شديد السواد على ثياب

ناصعة.. تلاشى جمالها الذي ينسل إلى الأعصاب وتلك الانتصارات الهلامية الوهمية في
انتزاع الأشياء، مججت تلك البراءة التي تختفي خلفها مخالب لبؤة متربصة قد تنقض بين
لحظة وأخرى.

ومرت الأيام اكتست ملامحها بخيبة الأمل والأمانى التي انهارت، وطفقت تهشم الأشياء
الجميلة كأواني خزفها المنزلية كما كانت تفعل في صغرها تماماً.

تحية لتماضر

إن الله لا ينزع البركة من مكان كانت فيه. هكذا أنهى مولانا حديثه في درس الظهيرة عند المظلة المكتظة وسط السوق، كان علاء يود أن يسأل سؤالاً أرقه في الآونة الأخيرة، ما الفرق بين القدر والمصيبة، سؤال تحشرج في حنجرته ولم يجد له جواباً، ركب علاء البص المتجه إلى السوق الشعبي، مغن ذو صوت مشروخ يرفع عقيرته بنشيد سمج! في الطريق المعاكس قابلتهم سيارة فاخرة عليها لوحة هيئة دبلوماسية بداخلها رجال حمر ملتحين، كأنهم كوماندس من زمن اليانكي الغابر أو رفاق الاشتراكية العلمية التي كنا نعجب بها ذات يوم. في البص الكبير المتجه للعاصمة، التقى بعصام زميل الدراسة الذي سرعان ما أصبح صديقه، عصام شاب بادي الوسامة، حدثه عن فتاته التي جن بحبها وتاه في غرامها رغم أن خفقان القلب الآن قد فتر! ألح عليه بالنزول ضيفاً معه بالخرطوم، البص مليء

بالجنوبيين فارعي الطول والسواد.. مسجل البص يرسل أنغاماً على موسيقى "يا حاجة دقي الكاروشة".

رجال إنجليز يعملون في المصنع المجاور، ينزلون زميلاً لهم في المحطة، مدرسون مصريون مغادرون يحملون حقائبهم في إجازة طويلة. الموسيقى تنتظم شيئاً فشيئاً على ألحان الروك أند روك. علاء العائد من إحدى جامعات الخارج للدراسة بالسودان وصل الخرطوم، نزل بمنزل صديقه عصام، المنزل واسع الأرجاء ذو حديقة متنوعة الأزهار والأفنان، في المساء أتت تماضر لتحية عصام الذي ماطلها كثيراً في أمر زواجهما بعد أن نال وطره أخيراً، وطالت غيبته في مشروع والده الزراعي. وجدت عنده علاء شاب أخضر اللون فارح الطول فاحم العينين ناعم الشعر، أحست تماضر رجفة عمت جسدها كله، وعرفت أن العبرة بالخواتيم، أشياء كثيرة تغيرت حينها، تبدلت خفقات وانزاحت غيوم غشاوة كست القلب الطاهر، كان جرح المأساة غائراً فأضمرت أمراً خطيراً. دارت عينا عصام الذي صار يمعن النظر في عيون لا تعرف الكدر، في اليوم الثاني ذهب عصام لإنهاء بعض معاملته التجارية، ترك علاء بالمنزل بعد عناء سفر طويل، أتت تماضر في البكرية تحمل سنواتها الغضة وتحت ظلال شجرة الفايكس الضخمة في فناء المنزل جلسا، راحت تحكي حكايتها..

أحزانها التي تجمعت كأعوام عمرها قطرة قطرة، أمها التي ماتت إثر شجار أبيها المتواصل،
زوجة والدها التي أذاقتها المر، عصام الشهم الذي وعدّها بالزواج، أهو رافة بها وشفقة أم
هيام ملك عليه شغاف قلبه. وعلاء الذي هبط فجأة كإنسان من القمر. إنها منذ أن رآته
تبدل حالها وأضحى الأمل الوردي يرفرف في عالمها الحزين، أعجب بها علاء، راح يسايرها
لحين، تأنيب الضمير كدبيب النمل يأكل قلبه، شعر أنه يخون صديقه ويدوس على علاقة
"الملح والملاح".

حدثها أن ذلك لا يمكن أن يكون وأنه حقاً بادلها الإعجاب، ولكن لعصام السبق في
حديث القلب والعيون. من السوق أحضرت معها لفافة من الصبغة السوداء، مزجتها مع
أكواب البيبسي الثلاثة.. ألقّت نظرة على الأكواب المثلجة، اختصرت عالماً بحاله، التعاسة
الماضية، أكوام الأحزان، الحظ العاثر والشرف المهدر، بهدوء قدمت الأكواب لعلاء
وعصام ثم شربت كوبها الأخير.

أصوات الطواحين، طنين الصراصير، دقات طبول أفريقية، برق البروق، صوت الصواعق
والرعد.. زوجة أبيها، عصام الذي كان رائعاً وعلاء الأخضر الفارع الطول الذي هفا قلبها
له! الإلنارة الباهرة، الانزلاق الرهيب، الدهاليز المظلمة، ثقل اللسان، تماهت الأشياء،

وعجزت عن التمييز، صراخ وعويل وصمت، سقطت تماضر وعصام أنقذ بعد إسعافه! رويداً رويداً خفتت دقات الطبول، طنين الصراصير، انداح صوت الرعد، اختفى عويل النساء، وصار مولانا يتحدث بصوت خفيف فيه خشوع ومهابة عن البركة الشرعية وتسهيل الزواج، وعند حلول المساء ساد سكون هادئ أرجاء المعمورة وعم الظالم.

كفاح نبيل

نبيل كائن استنادي، وبما أنه حساس ومثالي يود أن يقيم أكثر مما يملكه من إمكانات، لذلك تمتاز حياته بالمرارات. البدايات الغامضة والورطات إحساسه بتوقف الدنيا إن لم تستجب له طلباته، اعتماده على الآخرين جعله يفقد نفسه، وجد نبيل نفسه هكذا فجأة داخل المؤسسة يعمل مع أناس لا يفكرون قط في التمرد، يعملون في صمت دون جدل أو خناقة بسلبية بائنة. رغم الإيهام وغرابة التصرفات وعدم النضج من مسؤولي المؤسسة الذين يأكلون الحلوى بورقتها، أكرم رئيس المؤسسة كائن غريب الأطوار، يحب انتهاك الأشياء ومجرم بالفطرة، يستكين أحياناً ليحقق هدفه إسقاطاته أنانيته شديدة البروز. حبه للمظاهر

والغاء الآخرين، شخص لا يقبل التحدي يمثل ليحصل على ما يريد، وعندما يتم ذلك
يخطط لاصطياد جديد، هل هو مريض؟. قال أحمد آخر منتسب بالمؤسسة: إن ما يؤكد
اهتمامه بالمظهر تركيزه المفتعل واختراقه لآخرين.

فاطمة زميلته قالت: إنه طاغية سريع الاستشارة.

قال نبيل: لا بل إنه قرد إن وجد الفرصة للانقضاض.

قال أحمد: بل إنه حمار يفكر ببطء.. علينا تقبله وإن قاومنا سيرفسنا.

أكرم بإيعاز من آخرين يعمل أشياء جيدة وهو طيب أحياناً لكنه متقلب المزاج. بقية معاونيه

في المؤسسة يعملون مثله تماماً، يمسكون العصا من المنتصف وعلى بقية الموظفين أن

يطيعوا كالحمير ما دام يدفع لهم آخر كل شهر، صبرهم صمتهم وسكونهم المثير للدهشة،

أكرم عادة ما يستعمل معهم قانون الترغيب والترهيب الذي يجعلهم يثورون لمسائل

شخصية.

قال نبيل: متى يلتفتون إلى قضاياهم العامة؟ وهل ذلك يؤثر في الطاغية وأتباعه الانتهازين؟.

قال أحمد: أكرم لا يعرف أن تحت الرماد وميض نار. ومساعدوه يقولون إن الأمور كلها

تمام، يتضايق أكرم ويقطب جبينه وسرعان ما يضحك ضحكته المججلة، إنها مسائل

عارضة لا تشغل بالك بهم اتركهم لي، قال مساعد: أنت كثير المشاغل ولا تزيد إحساسك بالإحباط..

تمنى أكرم الموت على أن يتعامل مع هؤلاء القردة.

نبيل قال: إن المثالية ضد الوعي الحقيقي بالوجود والرومانسية هباء وضد الواقع، المسألة في غاية البساطة لنرسخ لخصوصيتنا ونرى الأشياء كما هي.

قال أحمد: إنهم لا يملئون فراغنا الداخلي بالعمل.. البد أن نعي الأشياء من حولنا ونزيح الأزمات هل الماضي دائماً أفضل؟

قالت فاطمة: لنسرع حتى نبعد التردد وبما أن الواقع ليس أبدياً وهو سخي، فانتصاراتنا عليه تبدو هزيلة.

ورويداً رويداً ضمرت المؤسسة وطالها الكساد، فما بني على ظلم البد أن يجرفه السيل وإن طال الزمان.

ضياح نسرين

أيامه شواطئ وأمواج وزيد.. قابل إدريس والد نسرين ذا البطن البارز والنظرات المبعثرة، والذي تصيبك بالضجر عجزفته البائنة والرغبة الماجنة بإذلال الآخرين، الخدم من حوله ينفذون مهمتهم في صمت، جالسا على مخدات كبيرة مغطاة بالجلد وأمامه منضدات من الخشب الموسكي لا تعرف قفاه من واجهته قبل أن ينطق، قال له هراء.. وبحديث مقتضب أنهى الموضوع بإشارة من يده.. أن يذهب لسالم، قالوا له إن عاطف من غرب إفريقيا لا حسب له ولا مال، رغم أن عاطف شاب حنون ويمتاز باللطف وذكاء فطري ووقار كثير.. كان

يجمع النقود وينفقها سريعاً، عاطف تستسلم الفتيات لحنانه الوافر.. وكانت نسرین تقول
إنها مستعدة للقيام بأي شيء لإسعاده، وكان هو يعرف ذلك ويذوب حناناً وشجناً، كانت
ستفقد نسرین صوابها إن لم تتزوجه.. واتقدت تلك الشعلة بين الاثنين، نسرین سمراء ذات
نهود بارزة وقد ممشوقة، حديثها الناعم وخطوها الهادئ، التقت عاطف في يوم رائع فتوقف
الزمن، ملأ حياتها بالصخب وحلمت معه في شواطئ الهوى والمسرة، كان إدريس والد
نسرین قد أعطاها لابن عمها. ولم تجد معه غير الضجر والتكرار الممل، ببطء في الفهم
ونعومة في الحديث، لماذا يمحو الحلم والأشواق.. رآها عاطف وإيناس أخته تضع لها
الكريمات والمساحيق، الماسكرا والكلونيا، هطلت عليه الرغبة نفذ صبره وامتلأ الحيز المتوتر
بالزبد.

ذهب سالم لعمها حسب حديث أخيه إدريس، غيمة تحيط، سالم كثير الخيال قليل
الدعابة يتحدث في بيت من زجاج. قال: إنه قد وزعك! حائط من الغم كساه، ضحكته
كالليل، ضخمة كالوهم، شعر بنفسه حراً كعصفور رغم سمائه الممزقة..
المشاعر لا توضع في كلمات، وعاطف صدى لنشيد الحياة صار وحيداً والصورة مهتزة وقل
البوح، رفضوا نتيجة إشاعات وأقاويل كريهة. عاطف رأى في عيني سالم تواطؤاً ولا مبالاة،

يحتقرون الناس لمالهم الكثير ويعتبرون أنفسهم نبلاء. ابن عم نسرین الذي وعدوه برجوعها إليه مدع يفضل اللهو والمجون، لم يرسل لها الهدايا طيلة السنوات الخمس التي مكثها في الخليج عاملاً. عاطف الذي يمتلك موهبة الكلام يعرف كيف يقنع مستمعيه، قالت أخت نسرین إنه سحرها، لذلك تنقاد له كالبلهاء وهي سعيدة، تكذب الوغدة وهي تعرف الحقيقة أنه صادق إزاء مشاعره نحو نسرین، توتر عاطف وشعر بالقلق. رفض أم قبول، وخيم في الأفق حزن دافق وانفعالات. وزفت نسرین لابن عمها واستقبلها في المطار، سميناً قصيراً ذا لحية صغيرة كادت أن تبصق في وجهه ومرت الأيام التالية دون شروحات، قلق ودموع ولحظات مسروقة وهي المهجورة، تشويشات صارت تتابها.. شحب وجهها وصارت تعد النجوم وتتحسر على عمرها الضائع.

حكاية حب مفقود

هشام شاب مبدع وفنان ذو ذقن أشعث وبنطال مهترئ، أسماه تنقصها النظافة، كان قليلاً ما يهتم بجسده، لكنه كان طيباً وعنيداً وسمح الأخلاق، وكانت تتعلق به فاطمة الحسنة كموديل، عيناها التي تحتويك مرة واحدة، شعرها ذاك المهفهف وخطها الأسلان ووجهها الناعس.. حديثها الأسر.. دواخلها التي تفيض بالشجن.. الأنف والساقان وتلك الخطوات الممتلئة المنسقة بعنفوان غرفتها، أشياءها المرتبة، الأزهار والتمائيل المرايا والوسائد.

لا يضج شيء بداخلها سوى هشام بشعره المجعد وقصائده الحاملة ودعوته الملحاحه،

هشام يدعوها للزواج.. رفض الأهل.

قال هشام: مدهشة أنتِ وريانة.. تزوجيني! نطوف مدن العالم نأتي بأطفال رائعين.. والخرز

الملون والبنفسج، قالت فاطمة: حزم الشيخ والسوميت والصندل.

روائح الورد والرغبة وابتسامات عذبة مندلقة غمرت اللحظة، طيور الفرح والسرور تنطلق

تعانق فضاءات لا منتهية.. انقطعت عني أخبارها. بذلك الانتظار الذي يشعل جذوة الترقب

تسلمت رسالة من فاطمة بكل الشوق فضضتها وقرأت: هشام هذا غريب وفوضوي.. عشنا

أيامنا الأولى بحب وافر.. صفاء كثيف.. وشفافية مشبعة بالعاطفة، حياته المنفلتة لا تعرف

النظام.. إنه شاب متهور دلني ماذا أفعل!

قبل أن أفيق فاجأتني رسالتها تماماً، خفق قلبي بشدة تعطلت، جوانبي وأصيبت أطرافي

بالعطب، تعكرت سحتني، فاطمة الصافية كجدول، المتلهفة للحياة الرصينة الرقيقة تلقى

ذلك المصير، جاءت فاطمة.. النونة في الخد والخالان اللصيقان وإرهاق يبدو بالعينين، ما

بال هشام التعس يفرط في هذا الجمال الفاره.

فاطمة رتبت أمورها بسرعة، غيرت مسكنها وأغرقت روحها في تفاصيل العمل "كانت رحلة مريرة وانتهت"، غابت عن حياتي في يوم رأيتها وهي بصحبة شاب أنيق حليق الرأس على طريقة المارينز، يلبس قميصاً حريرياً مورداً أنيقاً في تناسق، وناعم في حديثه الخفيض تودده الناعس وحديثه الذي لا ينقطع.

كانت فاطمة تدعوه بحياتي، أخبرتني عنه كثيراً، فاطمة كانت معجبة بتعليمه العالي وحديثه العذب، حاول حياتي مراراً أن يغويها وعندما امتنعت بإباء وأنفة تزوجها رسمياً. بعدها انقطعت عني أخبارهما.

وذات يوم وأنا مدعو لحفل زواج.. الأنوار تتلألأ.. والثريات تزدان، الفتيات يعطرن المكان بالبهجة والمسرة وجدت فاطمة التي تغيرت كثيراً، صارت تلبس الجينز وتفك شعرها على طريقة الكوفات، صديقتها حياتي إلى جانبها كقط سيامي.. فجأة ظهر هشام كأن الأرض انشقت عنه بشعره الأشعث وبنيته المتماسكة، وجوم أصاب الجميع، انطلقت فاطمة إليه وأخذها بين يديه، طيب فواح غمر اللحظة، آفاق حياتي على النظرات تلسعه كسياط، تلاشي كإعصار زفراف، ذهبت فاطمة تتأبط ذراع هشام.

آخر الكلام.. حياتي أبحرت في مدن السراب وهشام فارق فاطمة للمرة الثانية.. وأنا قد
أمسكت القلم أخط هذه الأقصوصة.

السماء مثقوبة في الوسط تماماً

السماء متصلة بالأرض في انهمار دائم، وقطرات الماء المندلقة تذوب منزلنا ذاك الذي
أصلحناه منذ عامٍ مضى، أبي بوجهه الصارم المعهود بذل كل ما ادخره في إبراز ألوان
الزاهية من جير وبوهية رغم غلاء الأسعار، كل تشققات المنزل الظاهرة حاولنا إخفاءها
لحظة أن رحل العيد.

الساعة التاسعة والدقيقة العاشرة صباحاً في حائط ساعة مدرسة البنات الثانوية، قررت الجمعية الأدبية إقامة ندوة شعرية إثر دعوة من أستاذ الثقافة بالمدرسة. تعطرت ولبست أجمل الثياب وأبهاها، وفي الأماسي كنت أتدرب وحيداً على الإلقاء الشعري المؤثر مستخدماً يدي وحنجرتي وخلجات وجهي، للتعبير الصادق على النفس الشعري الجاد لشباب في العشرين، كان أبي يوصيني على الصبر والتماسك، وأن أراعي حال أسرتي المتواضعة، وأن لا أُلج الأماكن المهيبة حتى لا آتي بما لا تحمد عقباه، كنت أحاول جهدي أن أكون مستقيماً وأن أعاونه في تصليح الحائط المنهار في منزلنا ذاك الذي يهتز تحت وقع المطر، قطرات المطر المناسبة تواصل النزول من بين ثنايا السقف المثقل بردمنا المتواصل قبل كل سحابة سوداء تظلل حيناً الذي لم يعرف عمال حفر المجاري منذ أمد بعيد. إخوتي الصغار يتصايحون من الجوع الذي يفري الحشا، كانت والدتي تقول إن الشعر نوع من الترف، والخواء يضرب البطون الجائعة.

ذهبت إلى المدرسة في حفلها النهاري والساعة فيها تشير إلى التاسعة والدقيقة العاشرة وأنا أتهيب ذلك اللقاء، كان أصدقائي فرحين خاصة أن هذه أول ليلة أُلقي فيها شعري الذي يعجبهم تماماً، تطوع أحد الأصدقاء أن يذهب معي لبس أجمل ما عنده من ثياب وفي

الطريق تحدثنا على أن استقبالنا سيكون بالورود والحلوى من البوابة المسقوفة بأشجار العنب والليف، وجمعية الثقافة من الفتيات الحسنات الرائعات على الجانب الآخر، وسيصم تصنيفهم الحاد الأذان عند رؤيتنا وصديقي يقدمني على أنني الشاعر الموهوب والمبدع في ساحة البلد هذه الأيام، قطرات من الخوف والفرح والذهول تتقاطر على مخيلتي وتسيل كما تسيل الماء على جدار منزلنا الخرب.

هذه اللحظات انتظرتها العمر كله أبهر النساء والرجال، وصلنا والمدرسة تطل بسورها الأبيض المهيب ومبانيها الشامخة والساعة تشير إلى التاسعة والدقيقة العاشرة، خابت آمالنا ولم نجد سوى رمال وأشجار جافة وخفير دلنا بصعوبة على الأستاذ المشرف الذي حشرنا في البرنامج المعد، على استحياء نادى المدير صديقي المتهم في قضية شائكة، همس إليه بكلمات لم أتبينها غادر صديقي على إثرها المكان كالملدوغ، صمت المدير برهة ليدعني أقول قصيدتين مع كثير الثناء وكل الاحترام وأن ألحق بصديقي على أن لا أعاود الحضور. انفتحت السماء على الأرض بثقب كبير، الماء الأزرق على مد البصر، وخير مياه السيول كموسيقى حزينة تذوب القلب المثقل بالهموم، والرعد يردد والبرق يبرق، انهار سقف منزلنا ولم تجدِ توسلات والدتي ولا صياح إخوتي الصغار ولا فرار المعزات الصغيرات لهول

الكارثة، حاصرت المياه منزلنا العامر حيث كان ينعم بالدفع والأمان، كل آمال والدي
وطموحاته ذابت في لمح البصر، كان كالتائر بيني العش قشة فقشة عبر سهر الليالي
وتعب العمر، انهارت أحلامه ذات يوم غائم مليء بالأمطار. شلت حركة يدي، وماتت
خلجات وجهي، تحشرجت حنجرتي وأنا وسط المسرح أقول الشعر وأتصبب عرقاً بارداً
كالمطر، صوت أمي يتناهى إلي من بعيد، يوبخني على هذا الترف البائر والتجارة الخاسرة،
لم تنفع وصايا أبي، حاولت التماسك، تساقطت الأحرف مني كالرذاذ وتضاربت الكلمات
كالرعد. ضحكات الفتيات الصغيريات مثل برق العبادي "يشيل ويحط" وتلك الحادثة
كالسحابات الداكنة الهارعة نحو وسط السماء لتندلق بالثقب الكبير. وساعة الجدار
المعطلة تشير إلى التاسعة والدقيقة العاشرة من نهار يوم حزين.

رتينزا داخل الحذاء

إنها تجربة إنسانية شائهة يجب علينا أن نمتحن في الحياة لنعرف كنهها، بالنسبة أحمد
فالشك أنها مليئة بالمرارات، وبالنسبة للمبارك فالواقع الذي كان يعيشه ما هو إلا وهم من
صنع أحمد، التقيا معاً ومن يومها لم ترفق عصافير الروح، ولم تضيء شرفات القلب بضياء
القمر.

يمكنني أن أقول لكم عن دناءات المبارك، إلا أنني لن أفشي لكم كل الحكاية، فالمبارك كان قد اكتسب قواه الشريرة والمدهشة على مر الزمن، فهو القادر على التلون في أداء مذهل، ويغذي أحمد هذا البالون بثقافات مأكرة ودهاء لا ينضب، وبحذاقته المفرطة يدعوه للتحقق من علاقة محلقة بأجنحة الخيال، ببساطة يمكن أن يدمرك المبارك، وهو عند أحمد محق لقد أصيب بخيبة أمل. سيف الدين، وها هو أحمد يستدعي المبارك ليحكى له القصة الداوية، المبارك يضع في حذائه عملاً واجب التنفيذ، وفجع السامعون لهذه القصة شئنا أم أبينا إلا أننا نريد أن نسمع مزيداً من الحكاية. أحمد يتحدث بحماسة عن ساعده الأيمن وعن أدواره التي يؤديها بإخلاص وعن حيويته وجاذبيته وأن لا شيء يعيقه، لكن لم يكن مستعداً لسماع رأي آخر عنه وعن علاقتهم المثيرة للجدل، مبارك اللغز لم يتفوه ببنت شفة وبدا منكسراً وخجولاً، أحمد المراهق بدا صريحاً بشكل فاضح، والمبارك المتمتع بجرأة كبيرة، يضرب بحذائه على البلاط ويهدد بالاستقالة. شيء يدعوك للتقيؤ.. المبارك الاستفزازي وأحمد يدافع عنه دون مبرر، من يكن جالساً في الظل ليس كمن يضع يده على النار، كل الحضور أصيبوا بصدمة أن أحمد المتقلب لا يستطيع أن ينتقد المبارك الذي يسيء معاملة الجميع بقسوة غير منصفة. لم يتراجع أحمد وإن كان تناطحهما صار

مكتشوفاً، لقد تسربت القصة أن الجزء الأسفل من قدم المبارك موظف لتسيير رأس الشركة ممثلة في أعلى قممتها، وها هو المبارك يعيش أجمل سنوات عمره بابتهاج بائن يرفع رجله بحذائه الجديد ويضعها، فتطير رؤوس ويحال موظفون للصالح العام وآخرون يهيمون في البطاح دون رجعة، وصارت الأيام كثيبة مليئة بالضجر والذهول.

لقد أدمن أحمد ترهات المبارك الزائفة والمستهدفة للجميع تجسيداً لروح الشر عنده، هذه العلاقة يكتنفها الغموض وأحمد من قوة اندفاعه ماتت فراسته مما جعله لا يستطيع أن يفرق بين الخير والشر، الكل يريد أن ينفرد بذاته، والسؤال الذي يفرض نفسه لماذا يوظف أحمد رجلاً يحتقره الناس فاقداً للوقار، وترسم ابتسامة حزينة في محياه الكئيب. المبارك الذي فقد آخر عمل له في مدرسة للبنات إثر حادث أخلاقي، وحديث الناس عن ابتزازه الأخير وحكاية "الرتينزا" المشوقة المتروكة بعناية في حذاء جلدي منذ أمد طويل، مسكين المبارك لقد أودت به انتهازيته إلى سيرة سيئة السمعة كان حريصاً على إخفائها، إلا أن الأوان كان قد فات على استغلاله لموقعه، فقد كان مدمراً وتنفشى منه روائح بغیضة، أحمد هل تعجبه تلك الروائح أم أنه صار لا يفرق بين المبارك وحذائه الجلدي الجديد.

خرج ياسر

الشمس تأتي باكراً في الصباح وتشرق من الأمام في كل يوم جديد، في ذات مساء لا
ككل الأمسيات وجدت نفسي لاهثة أجوس في طرقات المدينة العابثة أبحث عنك.

شوارعها المحفرة بفعل الماء المدلوق.. أزقتها المتعرجة، صفوف الخبز الطويلة، والناس
وقوف تحت وهج الشمس وصهد المعاناة انتظاراً لما يقل الأجساد المنهكة. طائرات الرش
وتلك التي تحمل الخيام والبطاطين والمؤن تذهب ثم تعود ولا جديد.
منذ أن تهدم منزلنا في ذات يوم ممطر وياسر لم يعد للدار. كان حياً كالعذراء في
خدرها، والابتسامة الرائعة لا تفارق ثغره المفعم بالحياة والأمل، غضب عليه والده في صباح
يوم كئيب طرده من المنزل على ألا تطأ قدماه عتبة الدار أبداً، كان قد ذهب دون رجعة.
في آخر يوم له بالمنزل ذهب ليحضر الخبز ولم يجده، حاول أن يملأ البراميل الفارغة
فكانت المواسير ترسل أنيناً يفزع عصافير شجرتنا الشائخة، ثلاثة أيام بطولها والمنزل خاو
إلا من الهواء والمطر، هجرتنا قطتنا الوحيدة واختفت الفئران وكلبتنا ذات الذيل المبتور
وخرجت آلاف الثعابين والعقارب في منزلنا والأحياء المجاورة والآن تركتنا يا ياسر، أرسلنا
للمذيع أوصافك: فتى في السادسة عشر أبنوسي اللون تلوح بشرته الشمس، "سببي الشعر"
شامخ الأنف وفي عينيه ألق وذكاء، ينتعل حذاء "سفنجة"، ويرتدي بنطالا رمادياً وقميصاً
أزرق. تضاربت البرقيات شرقاً وغرباً ووالدك أرسل بالبريد وكتب للصحف معلناً، وكلما أتى
آت من المدن البعيدة كنا نذهب إليه ونسأله عنك، وظللنا نجوب شواطئ الأنهار وظلال

الأشجار في المستشفيات والأسواق والآبار، حتى كدنا أن نرفع الأحجار بحثاً عنك.. قتلنا
الظماً واللوعة لفقدك الذي أضحي غصة في الحلق.

كنت في تلك الأيام الخوالي أهواشك، أغضب منك وتأتيني باسماً لتمتص كل قسمات
وجهي العابس، أزيحك بعيداً عني لتلتصق بي في حنان يفجر أكثر القلوب قسوة، كنت
تبرني كما لم يبر ابن أمه من قبل، سامح الله والدك الذي يسوف الآن كجمل كظيم يناوشه
الحزن الدفاق ومسحة من الألم الدفين ترسم على جبينه المجهد.

في مرة لمحتك وسط الزحام في السوق، كنت أحمل في رأسي سلة مليئة بالخبز والتمر
وعلب الحليب، أنزلتها أرضاً على عجل لألحق بك، نفس القميص الأزرق والحذاء الأخضر
والجسم النحيف. أمسكتك من ذراعك اليمنى، لم أجد الأنف الشامخ ولا ذلك الألق الذي
يبرق في العيون، رجعت خاوية الفؤاد خالية الوفاض، لم أجد السلة المليئة بالخبز والتمر
واللبن الحليب، ترى أين أنت الآن يا ياسر؟! من يغطيك من البرد ساعة الزمهرير؟ ما يقيك
من المطر؟ ومن الذي يعطيك الطعام؟ لو رأيت حال أبيك الآن لعدت أسرع من البرق
ولسأبقت صوت الرعد. قال الآتون من المدينة الأخرى إن أباك قد لمح صبيّاً مثلك أخضر
كعود السيسبان، ندياً كالطل، يافعاً كغصن يانع كحقل نضر.. جرى خلفه حتى توقفت

أنفاسه وخر العرق منه شلالات أنهار ممتدة، صاح صيحة واحدة وهمد. ومن يومها وهو
يحكي الحكاية: آلاف القمصان الزرقاء، غابات الطلح والأبنوس، حقول الموز الكاذب،
السحب الرمادية التي تلتصق بالأرض، والسراب الذي يحملك على بساط أخضر، والريح
التي تلعب بشعرك الأسود الجميل. والماء والدواء والخبز والنور الباهر.. وهو في ذهول تام
يفيق أحياناً ليصبح: إنني كدت أمسكه لولا ذاك الجندي اللعين ذو الشارب الكث والبطن
المنتفخ والعصا المعكوفة. طرقات المدينة تن تحت وقع خطواتي المفعمة بالحزن والأسى،
والصفوف الممتدة، والأيدي المعروقة تبحث عن كسرة خبز وقليل من الماء النقي.
توقفت الطائرة التي كانت تنز وتحمل المؤن، أنزلت كل حمولتها في البطون العريضة التي
ازداد عرضها، الشمس تطلع كل يوم من الشرق تماماً وأنا أبحث عنك يحدوني الأمل أن لا
أفتقدك كما فقدت أباك وإلى الأبد.

الوصية

في ليل بلا مطر سافرت روح أيوب تتقاذفها رياح وأعاصير، سقطت في مستنقع بلا قرار،
مفاصله تيبست في زمن بلا أسماء، الرمال تسد الأفق وشمسه غابت وسماؤه بلا قمر.
أوصى الشيخ حامد ابنه أيوب، وما هي إلا أيام وقضى الشيخ نحبه، وسارت الليالي بأيوب
طلوعاً ونزولاً فرحاً وأسى، وترعرع الشاب الأخضر الفارع الطول أيوب، وتزوج من امرأة غريبة
لجمالها البائن ونزقها الأكيد، وصادق جاره الشرطي صالح مثال الاستقامة والود، واستدان
من التاجر الجديد أحمد المستعجل أبدأً للثراء. زمن مضى وقلت لحظات الاعتزازات،
تلاشى التوق، تشققت الأرض العاشقة وهو يهفو لحب بلا جراح، مال هذا الوجع المعرش
في حنايا الضلوع والأفئدة، تنهد زفرات في الظلام تنشد حياة هادئة.
ومرت اللحظات هائلة، السكن الدافئ والزوجة المطيعة والصديق الوفي، هذا زمان الأشقياء
المندسين في المخابئ والكهوف، متى يجيء زمان الضياء والأعراس البهيجة التي تنسج
بهاءها وتخضر سماوات حياة بلا أوجاع، وفي ذات يوم سافرت زوجته أهلها، ووجد أيوب
نفسه جالساً في المنزل وحده يجتر ذكريات عمر مضى بحلوه ومره وقرر تنفيذ وصية والده
الشيخ حامد. الدماء تسد الأفق والوطن بعيد، وسفنه تود الإقلاع، متى تورق أيامه ويهفهف
العشب الأخضر بلا أوجاع، هذه أيام خربة، طيور وزهور ونار ولا مفر. أحضر خروفاً بقرون

طويلة ولحم وافر، ذبحه تسربل بدمه وواراه الثرى خلف السياج. أيام وهو يسمع الأذان،
يركض يحمل الوجع والغضب وإعصار جارف، مال هذا النحل يناوشه، ألا يراهم بعيونهم
الحاقدة، الجلادون لا يعرفون نمو الكلمات المموسقة، مالهم يثيرون الجراح، لا يعرفون
العشق ولا الرقص ولا المواعيد الجميلة والضحي.. عندما حضرت زوجته أخبرها بفعلته تلك
البشعة، وكيف أنه قد تشاجر مع رفيق له سابق في العمل أتى المنزل مهدداً وشاتماً وساباً
ولاعناً عن إيفاء دين قديم، وتطورت المشاجرة إلى ضرب وفي ثورة غضب قتله أيوب.
صاحت زوجته وتناثر شعرها، إنك فعلتها الآن وقد تدور الدائرة علي، وواصلت الصياح
بأعلى صوتها، تجمهر الناس، ذهب لصديقه الشرطي صالح الذي جاء، ضرب أيوب وقيده
وذهب به إلى العدالة، غامت الدنيا في عيني أيوب، وفي الطريق لحقهم التاجر أحمد
بأوداجه المنتفخة، ودائماً هو في عجلة قائلاً لأيوب: أعطني ما عليك من دين، إنه حقي
ويمكن أن تذهب ولا تعود.

تلك نهاية الجسد المشتهي وأنهار الحلم ومواسم القلب المشتعل حباً، وحكاية العيون التي
تناجي وتستحم بندى البرتقال، المحال يركب حصاناً ينثر الغبار غيمة ودماء تسيل وحرائق لا
نفاد لها. وأيوب يسير مزهواً أفقا بلا زنابق، الهوى والعذاب والبشارة وجسد يشع عابقاً

بجسارة تشهد لمواسم للفرح آتية لا محالة، الرؤى تتسع أمامه، والنشيد يرتفع، ومهر القيود،
وانفجار الينايع التي طال انحباسها. وذهب إلى غيابة السجن أيوب، ظلام دامس ساد
لحظات، وعندما أحضره للمحاكمة روى للقاضي القصة الحقيقية، وسير القاضي معه
شرطياً حيث أحضرا الخروف البدين المدفون هناك خلف السياج. صعقت الزوجة، انهار
صديقه الشرطي، وبكى التاجر منتفخ الأوداج، أحمد لقد نفذ وصية والده الشيخ حامد بعد
زمن، وعرف أن الزوجة الغريبة لا أمان لها، وأن العسكري صداقته مؤقتة، وأن التاجر
المستجد دائماً يحب الثراء السريع.

أهذا زمان المعجزات رغم العتمة التي تسد الأفق والحذر ومرارات سامقة. تهزأ منه الأيام
والقدر والقهر يتمدد، تنكمش الحكايات الرائعة، تتناسل شرنقات بغيضة، يعلو الأسى
ويكون المخاض صعباً مسربلاً بشلال أمنيات انتظار للمهدي الذي لن يجيء.

الخلاص

الصباح دافق ومعتم، نسيم منعش يداعب الوجه المكدود، تتوقد المشاعر، تتعرج الدروب،
والحياة تأخذنا من منحى لآخر. وأنت سائر تصفر عابراً المقابر، تحمل تصميم نسر، تقترب
من الهدف، تسمع وشوشات مثيرة وخفقان لتلج المغامرة، البد من فض الاشتباك، وأنت
ريفي قح، كل الإثارة عندكم عندما يطارد الكلب أرنباً، لتكسر الحاجز الزجاجي البد من
الجرأة، لا تكثر الأسئلة أو تلتفت إلى الضجيج، أن تلج العتبة الأولى.. هل أنت سعيد..
أزح الخوف والارتباك وإلا طالك الفشل.. مم تخاف دخول الظلام، المغامرات غير مضمونة
العواقب. تقول والتوتر يجتاحك لم تكتمل عدتي وعتادي، زادي لمقارعة المجهول، وها هي
اللحظات تمر بطيئة طويلة ومضنية.. هم السبب أجدادي والدم الذي يجري في عروقي ينزح
للتواضع. من يقارع الصعاب ويرتفع لهامات السحاب، تلك أقوام أخرى.. لا تهتز وتجعل
الريح تجرفك، فكر بأناة.. صوت يجذبك أن تعال، أطرده العجز والذلة، أمح كل الصور
الكئيبة.. إنه الصوت ذاته تعرفه.. شيء ينقر في المخيلة.. أحياناً ينقذك التأمل.. بالابتسامة
العذبة تنزاح الحواجز، وأنت لا ينقصك الذوق، بيدك يمكن أن تجعلها تنقاد، لقد جربت
السفر، أصبر وستنال كل شيء.. كل شيء أو العدم لا تدع العينان تفضحانك.. تنقل من

نقطة أخرى المهم أن تعرف ماذا أنت فاعل في الخطوة الأخرى.. استعن بالطبيعة، زقزقة
العصافير وهفيف أوراق الشجرة الخضراء ومثابة النمل.. أنت مرغوب.. لا تدفق ماءك على
السراب ولا تتصنع البراءة وعدم الفهم، أعرف أنك مندهش، تصرف بعفوية.. أراك ترتجف
فلا أحد يصدق أنك ستفشل.. لتكن مختلفاً.. الناس يكرهون الأشياء المتشابهة.. لا تضيع
الفرصة.. لا تتهرب أو تتفلسف، حاول بقدر الإمكان إيجاد مكانة.. أبعد اعتقاداتك التافهة
وهواجسك.. أنت مدرب لفعل أكثر الأشياء صعوبة، لا تفعل مثل سائر الناس.. ماذا
ينقصك.. الحلم أنت أميره المتوج، المهم أبعد عنك الكوابيس.. وتلك الأشباح التي
تطارذك، عباراتك الأنيقة هي من يسعفك في الوقت المناسب، أعرف متى تفتح الباب..
البدايات الصحيحة تؤدي لنهايات صحيحة.. أنت مطالب بالدقة أرسمها بالمسطرة
والبرجل، طوع الظروف وستخرج بنتائج أفضل.. من يدري قد تمتلك الأشياء كلها.. شيء
في عقلك لا يكذب تعرفه، هذا الجهاز الذي يندرك لا يخيب أبداً، لا تصرخ أو تكثر
الجلبة ستلفت الانتباه.. من الحكمة أن تتعامل كأنك لا تسمع أو ترى. ما يقتلك
المجاملة.. وإن كبوت عد من جديد، لا تتخلص من كل أشياءك وملابسك.. تعامل
بجدية واسمع للمرة الثانية، كل العواصف تمر بسلام، حتى الإخفاقات اعرف ما وراءها ولا

تستسلم للبؤس والتعاسة، المهم ألا تؤذي أحداً.. مهلا هل هنالك أمل في آخر النفق،
بصراحة أقول لك: هناك أشياء تتطلب الوحدة وأنت عصفور تحب الانطلاق، تتحول
الوشوشات إلى أقوال، تخطو خطوة للأمام فتتحول إلى أفعال، وها أنت تحزم حقائب
الترحال للهدف، لا تلتفت لضحكات السخرية والنظرات الشامتة.. لم تأت إلى هنا لتنهزم
وإنما ليكون لك صوت مميز، الهدوء يجبر الآخرين على الالتفات ثم الاستماع، انتقل
للمحطة التالية والتي بعدها ولا تكثر الأسئلة.
لقد امتلكت التجربة لتدخل كل تلك البوابات. القمة الآن أمامك وما عليك إلا السير
مرفوع الهامة إلى الأمام.

الإصابة

مريم من الشمال.. أتت صحراء ممتدة ومناخ قاس وعواطف ملتهبة، مريم فتاة بهية تهاجر إلى عينيها العصافير والأرغفة ويقدسها الأطفال والشعراء، لون الأبنوس كان لونها، ذيل الحصان كان شعرها، عيون المها كانت عينيها، تمشي في دلال وتديه في شموخ، تمتد شباكها في الحي والأحياء المجاورة، فني في عشقها محمود فأحبت هشام، محمود شاب غاب طويلاً فأتى من البعيد، جاءها بالهدايا، وكانت ككثيب رمل امتصت كل غناه وهامت بهشام، هشام فتى قمحي اللون مسترسل الشعر وسيم وناعم، غمرته بحبها حتى شرق، في مرة ذهبت محمومة تبحث عنه في منزله لم تجده، هشام في الديوان يترقب، اقتحمت عليه المضيفة جلست لحظة تطول أو تقصر، داهمتها والدة هشام، قطرتان من الأحمر والأبيض نزلتا، وشيء كالوميض لمع ثم غاب، وتناولت الباب الخارجي متناقلة الخطى، لم يهتم هشام مرتاد الأزقة والمواخير، هامت به مريم فوجد نفسه في بيت العنكبوت. مريم كادت تصير فتاة لعباً لولا خطبتها لمحمود، عرفت الشباب اللاهي سائقي البصات بائعي الخضار وماسحي الأحذية، استقر مركبها مع هشام، دارت الأرض دورتين، عندما علم محمود ذهل

ثم ذهب هائماً يتجرع الأسى ويسترسل حداه مع نسيم الليل الهادئ، ذهب لأهله ناحل
الجسد، غائر العينين، يلتهم حساء العدس بيدين مرتجفتين ككلب جائع، تلك لحظة الغداء
بمنزله، وأخوانه نحيلون بعضهم يبدو كخيال مآتة، وآخرون كالجثث، جلودهم لصقت
بعظامهم، أذرعهم كعيدان قصب، وصارت خدودهم كآثار خطى البقر في الأرض الوحل،
الأحناك الناتئة، العيون المغيبة إلا من تلك النظرة البلهاء التي يحملها صغار لا يعرفون ماذا
سيحدث في الأيام المقبلة.

والد مريم سلطان من العهد القديم، يرفل في أبهة مهترئة ونعيم زائل، نائم على أذنيه مغمضاً
عينيه وبطنه المترهل ازداد بروزاً، ومرت الأيام وهي تجوس شرقاً وغرباً، تقف في النواصي
المظلمة معجبة بجمالها الأخاذ وشباكها وفيرة الصيد كالنعامة تماماً، لا تدري أن حكايتها
صارت تتناقلها الأفواه، فجأة شحب لون مريم، صار الأبنوسي أصفر، سعال وحمى وعرق
ليلي، أخذتها أمها التي كالسمكة إلى الطبيب المختص، عندما خرجت منه قالت: لا
يمكن ذلك ولا يعقل، صارت مريم دافئة كلقيمات الشتاء، مضيئة كجوهرة مستكينة كلهب
شمعة يقاوم نسمات الليل، ما زال في الجسد الغض بقية من إيناع، الأنف شامخ في تحد،
وفي العيون شيء من الجمال، أخذتها أمها التي كالسمكة تماماً إلى طبيب الباطنية وهي

تردد بدهشة ما معقول أمام الدكتور الشاب، وهو مذهول بسرها الدفين وغموضها المحجب
وجمالها الباهر، في مرة راودها عن نفسها واستجابت بحميمة ظاهرة، وعندما فرغ منها
سألها عن مقولتها ما معقول، عندها كفت بلابل الدوح عن الغناء، وامتنعت زهور البراري
عن التفتح، وغاب القمر، أخبرته أنها مصابة بمرض نقص المناعة المكتسبة، صرخ الطبيب
المصاب يردد كلامها ما معقول. امتقع لون الأم وزالت رائحتها وتهشمت منها الخياشيم،
ذهبت مريم تبحث عن هشام وشباب كثير ضائع، الأب سلطان يغط في نوم عميق،
والطبيب الشاب يردد بذهول ما معقول.

طواحين الهواء

أنت وحدك هناك تكابدين الأشواق وتهوين الوطن.. دنياك برق ورعد ومطر وذاك البهاء..
أما زال للحظات سحرها، بحثنا معاً عن لغة الطيور ومعرفتنا للصد وسرورك، ونحن نغني
الشجن في أماسي الوحدة، وأنتِ تهوين المناكفات والعناد الأجوف والرحيل إلى مرافئ
بعيدة .. أعرفك تحبين الدفء والأغنيات الحميمة وضوء الشموع، لا تعرفين الاستكانة أبداً
وهناك تنتقين الأصدقاء.. أصدقاؤنا نحتمي بهم، نعتر بهم بكل الوفاء الممتشق صهوة
الإشراق، يا لذاك التعق وأنت كنجمة تومض مبددة سهد الليالي، وأنا وأنت نقلل من هيبة
المصيبة ونستوحي من كمودها آمالا تجري كالهمس.. أنت تحبين الفيوضات، والنفحات
تضمخ قلبك الكبير بالبركات حيث سكبتني نزيف الروح، تترصدين جنة الفردوس، كالانا
ظمان ونود التحليق بأجنحة رقيقة، لم تهن أيامنا يوماً ونحن نخطها لوحة شديدة العذوبة..
هنا للدعاشات طعم خاص ورائحة مدينتنا كعطر الياسمين، أنت تحبينها وتحبين دروبها

التي تهب منها نسيمات كالياسمين، وأنت ثملة باللوعة، ترنحنا معاً في سموات شديدة
الزرقة، وتحلق أرواحنا في مروج خصيبة، ودائماً ما نتساءل في سرور لماذا تنقضي لحظات
السعادة سريعاً، وتهمسين لي أن تذوق طعم الحياة، وهناك ما بين الحقول والشغاف تنداح
روحك الشفيفة وتقولين حكايا بطعم الأناناس الطازج ولون الباباي، وكم كنا نروح في تلك
الأودية وأنت تندسين ما بين الأعشاب والأهداب في سناء، والدنيا من حولك تزقزق
عصافيرها في روضة خضراء، عندها افتقدتك.

أمسية الخميس لها عندك وقع خاص، تلبسين أحلى ما عندك وتنداح الصبايا الرائعات
أمامك، وأنت بكل الجموح والكبرياء لا تتضجرين وإنما تمتشقين فتوتك وتغوصين في
الأقمار من حواليك، فأرى الفرح في عينيك وخيول السعادة تطفر من وجهك البهي،
قميصك المورد ذاك ومنديلك المعطر وأنت تدندنين بلحننا المحبب الجميل.. يا نور العين
أنت وينك وين.. توحين كأنك تمسكين بالاتجاهات الأربعة، وتفندين تفاهاتهم وأنت
تعرفين نذالتهم، لكم كنا مسرفين في ودنا ولم نعط للهواجس وقتاً ولم نضيع لحظاتها في
الأسئلة، ها أنت تمثلين بالصفاء من جديد، حيرني حبك للاخضرار وحماسك لقول الشعر
وتذوقك للموسيقى، لقد أوغلت كثيراً في ذلك، ما كنت أخشاه لك وأنت تتيهين مزهوة،

براعتك حينك الوريڤ، أزهيرك وأنت في كامل النشوة تنتصين واقفة كشجرة الصبار،
تشرعين سيوفك تحارين طواحين الهواء التي لا تستثني أحداً، صرامتك وحزمك وركضنا
خلف الشمس ونحن نضحك ملء أفواهنا دهشة.

لحظة الصفر

الشيء نفسه حصل ما بين العتمة وشفق الصباح الباكر. تكرر المشهد.. لحظات وتلاشي
كل شيء، طائر السنونو الصغير يرفرف بجناحيه في لجة خضراء. بالأمس التقاني صديق
قديم، سلامه كان فاتراً ولم يفعل عندما علم بسفري المفاجئ، افتقدت الحرارة فيه.. رغم
الصخب الذي حولي مازلت أعاني الوحدة، ضحكها وطائر السنونو الذي يرفرف بجناحه
شيء واحد.. صفقات أشجار النيم المصفرة متناثرة على الفناء الخارجي.
قطتنا الوحيدة بحركتها الوئيدة تحاول أن تبدد وحشة الوحدة التي أرسخ تحت كاهلها.. هي
تحب الكلاب والقطط، التقينا في وحدة كبرزخين، عند الالتقاء يكون اللقاء عنيفاً مخيفاً
مرهقاً أحياناً، ضحك صديقي بملء فيه عندما قلت له: ليس بالحنان وحده يحيا الإنسان.
كان صديقي دائماً يقول: إن هذا عصر السرعة والمادة والقوة، لم أبالي بقناعاته هذه ورحت

أبحث عن الجمال بأنواعه.. في إطلالة الشمس بأشعتها عند الصباح.. في ذهاب الأطفال وهم يحملون حقائبهم للمدارس.. في نافذة مواربة بمنزل صغير وخلفها حسناء صغيرة تموت حياءً وخجلاً.. في إطعام العصافير لصغارها.

السرعة والمادة والقوة كإيقاع عنيف، تذكرت ما كان يؤمن به صديقي.. الشيء نفسه حصل ولكن في رابعة النهار والشمس عند كبد السماء، ما عادت قطننا تموء بألفة.. فقد ذهب الصغار لمدارسهم، وأتت الشمس تشرق كل يوم، ولا جديد. وضحكتها وطائر السنونو تلاشياً في الضوء الساطع الذي يبهر الأبصار، ورويداً رويداً تبينت مسلمات صديقي، السرعة والمادة والقوة ولم أعد أبالي بسلامه الفاتر ولا حبها للقطط والكلاب.. ولا لنظرة حسناء خلسة للشارع خلف نافذتها المواربة.. الشيء نفسه حصل ما بين العتمة وشفق الصباح الباكر.. تكرر المشهد لحظات وتلاشى كل شيء.

همسات مآب الأخيرة

مجدي بشعره القصير المحلوق إلى جلدة الرأس بحذائه اللامع، كأنه أحد أعضاء الحزب الحاكم، هكذا كان مجدي عندما قابلته مآب.

قالت مآب: حين التقيت مجدي بكل أعراض الحب المألوفة، جفاف الحلق، اليدان المرتعشتان والعيون المسبلة، وعند ذهابي لمنزله مدعوة وجدت صورة أجداده وأقاربه ينظرون إلي من خلف الإطار، بجلاليهم وعباءاتهم الفخمة وساعات الجيب والعصي المزينة بفصوص الذهب والفضة، يملأهم العز والفخر، ليس هناك شبه بينهم وبين مجدي. تعلقوا الكلمات وتهبط حول مجدي وتفيض في موجات محملة بحطام الطفش والزبد والأصداف، ومآب زوجته تفوح منها رائحة الأبقار واللبن الحليب والحشائش البرية. مجدي يتوجس من مآب فهي تعرف خبايا نفسه، وتعرف فيه أشياء لا يعرفها الناس غيرها، وهو لم يستطع أن يفهمها. لقد ملته وربما ملها هو الآخر، كثيرة هي أسباب الانفصال بينهما.

الحياة رهيبية قال مجدي. إنه متشائم وتربى تربية صارمة قالت في نفسها مآب، وأضافت بصوت مسموع: الحياة جميلة إذا عرفنا كيف نحيها، قال مجدي: إن أسلوب طه حسين يعجبه وكذلك معارك العقاد والمازني، وأن الجيل الجديد جرياً وراء الحداثة قد خرب الأدب، وأنه مشفق للحال التي آلت إليها الأمور، مجدي متمتت وضيق الأفق وغامض كغموض الصحراء الكبرى، إنه يرثى لدعاة الأدب الجديد وقد تملكته الحيرة أن هذا الأدب غير المفهوم سائد الآن. مجدي وصديقه أسعد يتشدقان بالعدل وينصبان نفسيهما حماة للعرف والتقاليد، قالت مآب: إن البلاد ترجع للوراء بتبنيها أجندة القبيلة، وهي خلاف مجدي الذي يقول إن العالم عبارة عن مجموعة مؤامرات.

قالت مآب: إن مجدي لم يحاول فك مغاليق الأدب الجديد، وأن لا هم له سوى أنهم يتآمرون عليه. إنه مختل عقلياً، غروره اعتزازه بأرائه جعله لا يرى الآخر، ينقصه أن يتماشى مع الحداثة ليعرف العالم أكثر؛ لذلك أصيب بالاكتئاب. أسعد اللزج كدودة صارقيل يقول: إن العالم ممتلئ بالمنافقين والتافهين. أسعد وقف على هامش الأشياء وهو بجنونه هذا يعقد الأمور ويجعل الحياة لا تطاق، وذلك يوم قالت مآب تخاطب مجدي: إنك عجيب حقاً أنك لا تعرف شيئاً عن الحياة، حياة البشر الحقيقيين، ولا العالم ولا لحظات السعادة. ولا

الفرق بين الخير والشر، لقد علموه أن يفكر هكذا. إنه دائماً ما يقول إن حب الأعداء خذلان الأصدقاء.. مجدي صعب المراس ورقيق في أحيان كثيرة ومهذب وأنيق، لكنه مصاب بانفصام الشخصية، شعوره المتذبذب وهو يصحح مقالات المحررين، كان يحب تصرف اللغة العربية، ويعتقد أن الكون سيغير مساره إن أخطأ أحد المحررين في النحو والإملاء، الفكرة تستقر في رأسه كالسهم. لا يعرف الدهشة وينزعج لأتفه الأسباب ولكنه مغتصب الأهواء، عنيف إزاء الهجوم ولا يعرف الوقت المناسب ليرمز، تفكيره المشوش يسود عقله المتوهج فيصاب بالبلادة شتاء، ويغوص في دروب ضيقة مظلمة ومتعرجة تطفئ فيها الرغبات والذكريات والخواطر، لديه طاقة عنف خفية كامنة تحسها تكبله.

قالت مآب: أعمل حسابك، أسعد كان هنا لقد جاء في غيابك يرغي ويزيد وذهب كأن عاصفة هائجة أخذته، لقد أخافني وأنت من أوصله لهذه الحال، وهو في حالة من اليأس لا يتورع فيها من أن يؤذيك، لقد قال لي إنه محاصر وأن ليس لديه ما يبقى عليه، فهو خطر عليك.

لم يؤثر عليه حديث مآب أن حقه متجذر في أعماق نفسه، لقد كان ينمو ويتضخم كسرطان، أسعد نجمه سطع نجمه فجأة، وبسرعة عظم شأنه وأصبح منافساً لمجدي، إذن

تلك هي المشكلة، لقد حلل أسعد سطح نظام مجدي بنجاحاته الكثيرة وصعود مكانته،
تفوقه الدائم على منافسيه، قلة حيلة مجدي ونقصان موهبته ذلك ما جعل أسعد يتفوق
عليه، لذلك كاد إليه مجدي المكائد، مجدي كتاباته للصحف تافهة وحقيرة لذلك أصابته
بالقلق والتوتر أنها لم تحرز نوعاً من النجاح، قالت له مآب: لا تغضب نفسك على الكتابة
إن لم تكن لك فكرة. وأردفت: أتحبني؟

صمت ونظر إليها وفي عينيه ذعر ورعب. مجدي وهو الغباء نفسه يمشي على رجلين
همست أخيراً مآب.

تسولت مريم بمفاتها

تركنتي وذهبت كخرقة بالية بعد أن ذهب النشاء والرواء والبهاء. تبحت عن مزيد من الزيت واللحم والصابون، وكأحزاب الشمال تماماً فقدت الهوية والانتماء وارتمت في أحضان الترف الزائل، لعقت بقايا المجد الزائف ولا رجاء.. والدليل والدها.. ذاك البطين ذو الشارب الحليق والذقن البارز.

ولدت مريم في ذاك الحي الفقير النائي، كانت كفراشة في أزقة الحي الصغيرة المتعرجة. جمالها الأخاذ الذي يلفت الأنظار كان سبب شقاء والدها الذي فاتحني بالزواج منها، اقترنت بها على عجل، ولم تصدق عيناى أننا نعيش تحت سقف واحد حتى بدأت عواجيز الحي في نسج المؤامرات بليل وزرعها تحت تعريشتنا الوحيدة، إنك لا تصلحين له، جربي حظك مع شخص آخر، يا لضيعة هذا الجمال الفريد، وصدقت مريم وكبر رأسها وأبوها الدليل. في أول الليل والظالم يسدل أستاره أتاني يتوكأ على عصاه بعد أن ذهب بصره بفعل

السنوات، بدأ حديثه وقال: إنني عاجز لا أليق بابنته الوحيدة.. انفصل عنها غير مأسوف
علي.. استفزني حديثه الغاضب وقررت أن أفعلها، وفي القلب سكون وانكسار ومرت الأيام
سريعاً. ومريم وذووها لم يجدوا الترف الذي كانوا به يحلمون وازدادت عليهم ضغوط الحياة
وقسوتها، وفي ذات يوم وجدت الوالد يحمل عكازه متسولا ومريم الدليل تتسول بمفاتها
الباقية.. تجمع مزيداً من الزيت واللحم والصابون وتنشد كثيراً عن المجد والصبر والشرف.

هكذا تحدث عثمان عن اختفاء حديقة الحيوان

يقول عثمان: كانت هناك حديقة رائعة مملأة بالحيوانات من كل شكل ولون، الحشرات والطيور لها أجنحة خاصة، وتتناسل الأسود كأنها في غابة، والناس يزورونها في الأعياد، الأطفال أكثر الزائرين سعادة، ومرتادو الحديقة من الأماكن القصية هي مقصدهم الأول، عشاق يرتادونها لتزجية الفراغ، وطلبة جامعيون يقضون فيها الإجازات، والقردة تتقافز وتتناول اللب والموز من الزوار.

التماسيح تسبح في حرية في بركة اصطناعية، والنعام تأكل الحشائش وتبيض، والزرافات تمشي الهويناء، والطاؤوس يختال في مملكته، عالم من الحيوانات والأشجار والأزهار في بيئة طبيعية تضاهي أجمل حدائق العالم.

يقول عثمان: إلا أن معتمد البلدية قرر حسب مزاجه الشخصي أن تزال الحديقة دون أسباب، وجاءت الانتخابات وتغير معتمد البلدية بآخر أصدر أول قرار له بعد تسلقه كرسي

المعتمدية بإزالة حدائق الحيوان، الصحافيون تابعوا الخبر ولم تصلهم إجابة مقنعة، وراحت
التكهينات تتكاثر هل بيعت الأرض أم تم استؤجرت.. ضغوطات مورست على معتمد البلدية
الجديد في أول عام له بعد تسلم منصبه الجديد والذي ماطل في إصدار قرار بإزالة حديقة
الحيوان.

السنوات تمر.. معتمد يعين وآخر يقال. إلا أن الدهشة ملأت الناس جميعاً حينما اختفت
حديقة الحيوان، لقد نهضوا في الصباح الباكر ذات صيف تعس ولم يجدوها، الناس الآتون
من غرب النيل شاهدوا عمارة من عشرة طوابق تقف شامخة بلونها الأبيض الناصع مكان
حديقة الحيوان. اختفت الأفيال وبنات آوى وحمير الوحش، من الذي سرق الحديقة.. لا
أحد يدري!

امرأة بشعر مجعد تقول: إنهم الأجانب!

صبي في العاشرة يقول: لا بل هم العابرون.

فتاة جامعية تقول: دون شك إنهم المهولون والإجابة دائماً غائمة أو غائبة أو معتمة.

المتعطلون في الساحات العامة أرسلوا العرائض للأمم المتحدة وقادة الأحزاب وممثلي حقوق

الإنسان منددين باعتراضات ضخمة أن تعاد حديقة الحيوان لوسط البلد، حتى لا يتضرر

الجيل الجديد في تاريخه ورموزه، وحتى يرى ماضيه دون تذويق. إلا أن هذه الاحتجاجات لم تجد أذن مصغية، فالحديقة كما قال آخر حارس لها والذي يعتقد عثمان بأنه قد دفع له، قال الحارس: إن الحديقة صارت كالبثور في وجه المدينة الناصع، وأن ساكني الفنادق من حولها روعوا من أصوات الأسود والنمور، وأن المعتمدية ستعوض ساكني المدينة بحديقة أخرى أوسع وأجمل وأكثر أشجاراً تسع الناس جميعاً.

هذه هي قصة حديقة الحيوان كما رواها عثمان، لم يروِ التأثير السلبي لهذه الحكاية وما سببته من تدهور للثقافة وهبوط غنائي حاد وتدن كروي مزر ونزيف اقتصادي لا يمكن تجاوزه.

الصدفة وحدها جعلت عثمان يتحدث بعد صمت طويل: لقد كان مهووساً بالحيوانات وسمع بأن حيوانات حديقة دولة شقيقة قد تعرضت للجوع إثر الحروب المتواصلة هناك، وكادت تهلك لانشغال الناس عنها. ما جعل ضميره يستيقظ بعد صراع مرير وقاس ليتحدث بتلك الحكاية.

وفاض النيل حتى الامتلاء

قطرات وراء قطرات ينساب الخير ماء يملأ صفحة الوادي الكبير، انزاحت سنوات اليباب العجاف حيث تشققات الأرض الواضحة والحشرات الهائمة التي تبحث عن الرواء. الأفق صاف والسماء تنم عن السكون.

كانوا خمسة.. أسرة تنعم بالبساطة والهدوء، تربوا على حب الخير والصدق والشهامة.. والدهم المعلم غرس فيهم كل القيم الفاضلة، كانوا يتحدثون بصوت عال ولا حجر على الرأي الآخر، وهكذا سارت الحياة لا يكدر صفوها شيء.

ودارت الليالي فأضحت متطلبات العيش الغالية وتكاليف الحياة الصعبة لا تطاق، ضاقت الحلقة وصار ما يكفي بالأمس لا يسد الرمق ووصلت الأيام بهم حد الكفاف، بدأت تهتز الرؤى الجميلة ومشاعر الخير وأحاسيس الصدق والشهامة.. تطلعات الأمس غير أحلام

اليوم، والدنيا أمني لا تنتهي، وآمال معلقة في روابي عالية دونها النحل وسهر الليالي وتعب
العمر. رفض الوالد كل مغريات أن ينهزم كما انهزم الباقون، وأتته الفرص الواحدة تلو
الأخرى في شموخ كالأبطال، وشق الوهاد والجبال ليرضع الصغار الطعام الحلال.
وكبر الولد البكر وحمل المسؤولية، شقي الوالد ونقشه الخالد على الصخر ذاب على أثر
المغريات الفانية، وبين شقي الرحي انهار الابن وجرفه السيل، الآلاف امتدت يده إليها، بليل
أكل ما أوتمن عليه ومسح فمه وسكت، مرت الوجبة الأولى ازدها بصعوبة، وتفتحت
شهيته التي أضحت لا تقاوم وما كان يمارس في السر أضحي لا يسعه العفن.
شل الوالد تماماً وأضحى في عداد الأموات وهو ينظر ولا يستطيع النطق، خارت قواه وماتت
رؤاه وهو يرى الابن يتمرغ في المال الحرام، والأسرة التي نمت على عرق الليالي وشقاء
الأيام حيث أرضعها الصدق جذوراً متصلة في ثنايا الأرض الطيبة.
وسريعاً عم الرخاء الدار، غيرت الستائر المهترئة وبدلت سرائر الخشب المنهارة وأصلحت
الجدران الخربة.
قطرة فقطرة نزل المطر مناسباً ليستقي الأرض الياب، وتجمعت تلك القطرات سيلاً ملاً
صفحة الوادي الكبير.

الجهنمية تنشر أوراقها من أعلى السور

الميدان يلفه الدهول.. المكتب الصغير اتسع على غير العادة، شباب ذاهبون في بناطيلهم الزاهية، طلبة المدارس رائحون بجد لمدارسهم. الريح باردة، الهواء ما ينفك يأتي من الشمال، سوق الجمعة أصوات الباعة الهامشييين، الاحتفالات المتلاحقة، الفلوس العائمة وصبية يرتدون قمصان بوس عليها نجوم تسقط ونمور تضحك وعاصفة تدوي، هي وحدها القادرة على امتداد العشق فيك وانسراح المدى الأخضر في ذاتك التي تعج بالبوار، تتمدد تويجات الأفراح، نشوة تكافئها قصائد خالدة على مر الزمان. الحمى تعم جسدك، يناوش الألم اللذيذ أوردتك، تنداح الأعصاب ويحرق الدم حروفاً تجري كأمثلة، تغني معك المدينة بأثرها مسراتك الصغيرة التي تنساب كجداول من الحلم الشفيق، إنك الآن تشكل الألم إبداعاً رائعاً رغم قسوة المعاناة.

من البعيد يبدأ العزف، مطرب نرق طوال الليل يهذي، الأصوات تلج عتمة الليل البهيم،
تتهتك عذرية الليل الساكن، تن الأرض تحت وقع خطوات منتظمة، يمل المضطجعون
على فراشهم فرادى، يغشاهم القلق ويصير الأرق خطوات تشق الشارع، تزحف بالونات تسد
الطرق. سؤال يلح على المخيلة أي علاقة بينك والجهنمية الحمراء؟
أيام وأنت تعاني الأرق وهذا الحب الناشئ، أحلام تنشب في الرأس وخيالات تترى..
مخاوف تستقر في مؤخرة الرأس ويطل الحلم الزاهي يبدد الخيالات السكرى. فتى الاستقبال
المتألق يفحص بطاقات الدخول يمنع الناس ويمرر آخرين، عمال يعملون في تصليح السور
الجديد، ناس بجلاليب بيض يخرجون وكثيرون يأكلهم الانتظار.
دخلت المكتب لتجد فتاة مهدلة الأجفان أتت متأخرة في ليلة مقمرة تبعث المتاهات،
عطرها الثقيل ينبعث من ثقوب السماء، طيبها الفواح، وجهها المرقط كقط يخمش جرذاً
ميتاً. تبتسم في وجهك مرحبة، أتيت إنك تعرف المداخل والأغوار، مسالك الغابات
المظلمة والدروب الوعرة. حمل ثقيل جثم على أكتافك، هذه الوسواس تعرفها جيداً وهذا
الغموض. تحديق فيها ملياً، تأمرك أن تمارس التسكع ووآد الحقائق وأن تسافر عميقاً في
أحداق منطفئة، يأسرك لحظها في الزمن الرديء. تفقد هيبتها وتسير تمتهن التسكع على

أرصفة رحيق عينيها تهمس رغبة، تغدو لهباً وتهيم في ليل لا سواحل له. وتعود تحمل
أنفاسك المتلاحقة تسأل عنها عصفورة لاهية على غصن طري. وموج الشاطئ وهؤلاء
المتأخرون إلى البيوت المنزوية. أين أنت بهواجسك وجنونك وتساؤلاتك التي لا حد لها،
خوفك الدائم، حرصك الزائد جعل الجسور تنهار. ما بنيت البارحة جرفه الموج. العنبة التي
في تعريشة بوابة منزلها، الجهنمية الحمراء تزداد احمراراً في الأصيل، تأتي نحوها تقترب وفي
ذاكرتك ليلة مضت، الضوء الأحمر القاني في الغرفة المغلقة النوافذ، تصاعد دخان البخور
العطري. هل لك علاقة بأشجار الحنة وزهرة الجهنمية الحمراء؟ تشتم كل تلك الروائح وأنت
تلج بوابة منزلها، تستقبلك العنبة والعصافير وقطتها السيامية. شوقك المصلوب على شغاف
القلب، الحنين المتدفق نحو المصب. ما أحوجك الآن لصدر دافئ ولكلمة تنفض عنك
غبار السنوات. قميصك المورد الشفاف ذو الأكتاف العارية، الشال الأزرق الملفوف بعناية،
وتهيم في حالة من الاستغراق القصوى والهيام الكبير. تعلقك الهواجس تبدد لحظات الفرح
الآتي، الحمى والفشل المتكرر والمجهول، تأتي على كل ما تبقى من غسل، عندها
فاحتلال هايتي والخروج عنها سيان! أثار ذهولك هذا الانسجام العجيب بين كلب وجرذ
وغزال. بقية العصافير تشدو.. هل كل ما حصل كان صدفة؟ من عينيك تأتي الإجابة،

المكر والدلال والخديعة، زوابع الأحزان والتلون وانهيار الأعمدة. هل يمكن أن نعطي
اليافعين فرصة أن يعيشوا أيامهم دون أن تفسد عليهم بهجة الحياة. ستظل تطاردك الجهنمية
تحرق البنفسج والبرتقال وبهجة صباحات ندية. أفيقي لتتجمع سحبك الماطرة خيراً يمنع
صدى السقوط على أحواض الأزهار والرياحين والبنفسج.

المبروك

وإذا بي أطرق في حضرة مولاي المبروك قطب العصر والأوان والحق الملهوف ومجير
المكروب، سيدي وزادي وسندي وذخري، أشعر بدوران الكواكب وبالدم الحار يجري في
الأوردة وبالكلمات تتدفق كشلال. سيدي المبروك لا يعرف وعورة الطريق وهو الواصل، باب
المعرفة والأدب جراب الرأي، حديثه حكمة وكلماته أمثال، يرف السجع والجناس والتورية
والرمز، لا يحب الابتذال والركاكة ولا الادعاء الأجوف وزخرف القول الموشى بماء الذهب،
حديثه السلس وحضوره البهي يمنحك الصفاء فلا تملك إلا أن تثبت له هذا الحق. كاهن
يعرف حدود مملكته، وهو القائم بالأمر والنهي، مجتهداً ويحفز المكودين والمجتهدين،
يتسامى عن كثير من هفواتهم، وكالورد ينشر عبيره العطر كدفقة الدعاش وزيفة المطر.

وينتشر الأريج كدخان البن في جلسة محضورة. ينسال الأريج، والحسان يتهادين كما في

العرس، ويندغمن مع الألحان الشجية فيتوحد الوجود.

عرفته فأصابني الانبهار، لم أعرف الاستهتار في حضرته، وكفتى مغرم بفتاته يتقبل النقد

كقطع القبلة الأولى لا يصم أذنيه، ولا تحلو المجالس العاطلة إلا به، وزينة فتیان الحي أن

يجمل وجه الحياة البائس. وأنت مطرق في حضرة سيدي المبروك.. فلا فحش ولا فسوق،

وإنما الرزانة والتبتل والخشوع، حديثه كالياسمين مقطر بالذهب، وتلميحاته من الفضة،

تدهشك معارفه، وتدخل إليه كما ولدتك أمك وتخرج منه دافئ القسمات.

يعرف عن ابن عطاء الله السكندري والسهورودي ورسائل القشيري وأبو طالب المكي، وعن

قوت القلوب وزاد المعاد وتذكرة الموتى والطبري وحماد الراوية والرماد كال حماد. تخرج منه

متأكداً أنه باب المعرفة ومفتاحها، دون ريب وأن الكل باطل وقبض الريح، فهو المحيط

الكبير والبحر الواسع والقاموس الشامل. لا يعرف الشتائم ولا الأشياء الوسط، ولا اللعب في

الظلام، وكالبدر يسطع فيه الخير والقدوة، الناس عنده تتدافع بالمناكب، وحساده كثر لا

يعرفون حقيقته الباهرة. فهو يجوع ليطعمهم، ويعرى ليكسيهم، لا تستهويه ملذات الحياة

ومسراتها، سيدي ومولاي شيخي مبروك لتواضعه الجرم، سماه الناس بالخذاء أنه ينشر

الطمأنينة ويبعد عنهم الوحشة والخوف. فهو ككساء القدم المريح يعرف أين ينزل رجله قبل الخطو موضعها.. كثر المريدون والحيران حوله. الحذاء يحمي القدم من البثور والأدران وحجارة الطريق والأشواك والزجاج ومن حر الشمس، فهو كالبلسم يده ليست مغلولة، رحابة صدره تصنع وهجاً في جبينه الوضاء.

مولاي المبروك بعيد عن العهر وعناقيد الغضب، فهو يزرع الاخضرار أينما حل، فهو صنف مختلف لا يعرف الخساسة ولا الدناسة ولا الدناءة ولا التدليس ولا الهلس، فهو الشفافية مجسدة في رجل. سمح الأخلاق مرهف الأحاسيس، رابط الجأش عند المحن.. سيدي ومولاي في هذا الزمان، زمن الموات العجيب وأنت الزاهد تقف وحدك تنشر الهدايا، واقف كالصخر والناس حولك تدعو لك بالعافية، يا المبروك أيها الحذاء، لا تعرف الاستكانة أو الصمت إليك طريقاً، تزيح المرارة ممن حوالك، تبدل طعم الحياة الفحامي إلى نسيمات عذبة، لا تحتمي كأبي القدح بظهر الصدفي وتترك الآخرين للعواصف والأعاصير، وإنما تبعد عنهم الهواجس بعظمة إحاطتك وروعة تجددك، كبير العقل والخاطر والوجدان، يبدد ترددك وشكوكك. تروح منه وأنت مليء باليقين من ألفة يلتقيك، ويعشق الفن والإنسان، لا تشعر باللؤم ولا خيبة الأمل ولا الجور في حضوره الزاهر والممطر والنابت والمثمر، فهو

الملمهم وببصيرة يتنزل إليه فتح الإدراك ومسام صحائف الوجد والحب، يتحدث عن الشر والعدم وكيف لنا أن نطردهم من عالم الإنسان، فلهه درك يا سيدي وذخري وزادي وموالي.

ألعاب تنقصها الهمة

آدم مكنات ذو الشفتين الضخمتين غارق في هذيانه، متقلب في حالة من الإملاق يتسول المكانة.. من يصدق الحكاية وهو العنيد المتشكك والدعي. وهو يذكرني بقلب من الجلي متدحرج هلامي اللون ولزج.. لقد رثيت لحاله وهو يستعرض مهاراته جازماً إن لم تخنه الذاكرة أنه يقرأ المستقبل، دالِقاً كبرياءه المراق ساخِطاً على كل شيء. لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب، ناسياً المسكين تفتت رغباته، ما رأيت في حياتي تفسيراً أخرق لرغباته وأمانيه المضنية وأحالمه المصغرة التي جرفتها الريح. في حضرته لم يتفوه أحد بكلمة، قدرته على الإقناع واهية ومع ذلك يتساءل ويتناول، قدرته المحدودة وحديثه دون توقف يحتاج لضرب من السوط أن يعرف المرء قدره ذلك هو المهم، وآدم مكنات كدون كيشوت يضرب طواحين الهواء. امتلاً بالحمى وبفضاعات كانت ركام تربية سيئة ومصاحبة رفقاء

السوء.. أن تنام ملء جفونك عن شواردها.. لم يقترب آدم مكناات ذنباً وإن كان محصناً

بالسيئات، يبدو في صحة جيدة وهو يزرع الشر أينما ذهب وكانت محصلته صفراً.

لقد احتمله الناس وها هو السيل قد بلغ الزبي، ساديته أودت به إشعال النار وها هو

المحذور قد وقع وبات اللعب خشناً. أن تنحت في الصخر، مكناات التعس لم يهنأ

بتجاوزاته السمجة والرعاء. التقاه أحمد الكذاب وفي سباق الجنون سار على جمر حار لم

يدع له الفرصة لالتقاط أنفاسه، وثب عليه بنية تأديبه وكان الرد قاسياً. أن تقتص لنفسك

ذلك ليس من الشرع في شيء، وأن يكون الضرب أحد تسلياتك فذلك شيء رهيب. أن

نحترم القوانين. قال حامد الأكبر سناً ومكانة له التقدير: الناس جميعاً يعرفون انسحاب

مكناات المثقل بالطعنات والركلات.

من المؤكد أن الحياة جميلة لا نضيعها بغباوة تصرفاتنا ولكن الكذب دائماً عواقبه وخيمة

وحبله قصير.

تراجع مكناات وحامد، حاولا شحذ هممهما لفعل الخير، حيث لا ييوحان لأحد بعداوتهما،

وينعشان شجونهما بقليل من شراب العنب. صار مكناات يمشي قرب الحائط تجنباً لهجوم

غادر، وحتماً أنه استفاد من الدرس وصار يحمل معضلاته دون تقلصات، لقد شرب المر

دفعة واحدة، وها هو في حالة النزاع الأخير يتمنى الموت. فاجأه أحمد بطعنة لم يتمالك نفسه. حاول التماسك وشريط طويل من حياته يمر عليه، ملاءه الاستياء ولم يتسع له الوقت. لمتابعة باقي الشريط.. ركع كأنما يود الصلاة. ثم عاجله بطعنة أخرى دون شفقة، سقط كوحش.. وانهد ركن من أركان البشاعة. كان البد أن يزول.

وقائع لقاء عادة الأول

رائعة ومتواظفة.. فما العمل!

بالحنان كله التقيتها.. شعرت بكمال الأحلام ونهاية الآمال كلها، أن تحس بالرضا وبالإثمار وذلك الحفيف الأول، كنت أتخيلها هكذا مثيرة ورائعة، ورحت متيمماً بها، لا مكان للتنهدات، اتزانها وتماسكي، سعت أن أتعرف بها، لم أدر كيف كانت تفكر، ولكن سعة أفقها لامست شغاف قلبي، قالوا إنها حلم مستحيل والبرهان أنها لا تختلط بالآخرين. الحقيقة أعرفها وحدي وعادة التفرد العميق والامتلاء، أسبوعان وصديقي يريانها ولا يستطيعان التحدث معها أو التعرف عليها.. هل الحياة تستحق أن تعاش لولا المغامرة.. وجدتها واقفة مع زملاء لها، شعرت بالخوف وأنا أناديها لنجلس أربعتنا للتعارف، سرت

الحياة في أيامنا البائسة المنسية والمتشتتة بوجودها، جرى الدم في الشرايين ولكنني
تمسكت بها.

في يوم جميل من شهر فبراير وفي عصر أربعاء والشتاء يلفظ أنفاسه الأخيرة رصدت
الذكرى، وكان لغادة مزاج طيب، كانت رائعة بسحر العيون والقوام الفاره والجيد الألدن وذاك
الإشعاع، لست هنا أمدحها، كلماتها المؤثرة التي تفوهت بها جعلت عالمنا يمتد بلا
حدود، حدثني عن خدش في إصبعها وآثار حريق على الأيدي وعن خطابها الكثيرين، ذاك
الذي رفضته والآخر أوقفته وثالث على الطريق، دون اضطراب أو وجل. تعرف أهدافها
رغباتها، وتعبر عن ذلك بلغة لا يشوبها التعب، ها نحن نعتني بغادة حتى الثمالة.

بدأت الحكاية بانزعاج لم يخامرهم الشك أو اليأس، وبشوق عالي القيمة صرنا نلتقيها وكل
يوم ترتفع في نظرنا أكثر، صار أيامنا بوجودها معنى، غادرتنا الكآبة ووساوس العشاق
وهواجسهم وتصرفاتهم غير المعقولة.

لقد تملكنتني سعادة لا توصف وأنا خاشع في أدبها الجم، تنهشني الأسئلة هل نكون
سعيدين والفراق ينشب أظافره؟ غادة المتميزة هل يمكن استعادتها وهناك من دخل عالمها
في غفلة منا.

كلمة أعطتها له وواش دخل الإطار فأصابنا الدهول وتبخرنا.. هل يمكن أن نتحرر من
افتناننا بها، من العار التمسك بفتاة مخطوبة، هي صديقتنا ولكننا نجبها، أنخضع ونستسلم
لمصير تافه ينتظرنا معاً، لقد تكشفت لنا الأحداث. إنه الفراق لا محالة.
وتمزقنا من الداخل.. أصابنا الارتباك، علينا أن نحترم خياراتها وألا نستسلم لطقو زائفة،
الصورة ليست بهذه الرداءة والتفاهة والانحطاط والابتذال، وعادت غادة، لم نستطع أن
نسألها حتى لا نشوه اللحظات الآسرة وعصر الأربعماء يضحج بالسعادة.
حاولت أن تحدثنا عن فظاعة أيامها الماضية.. وشعورها بأحاسيسنا الدافئة تجاهها، لقد
كادت أن تشوه نفسها إلا أنها أفلتت عبرت اللحظات وها هي وسطنا تماماً بكل ذاك
البهاء، وحديثها كالنغمات يشفي العليل ومن فرط فرحتنا كالأيام الخوالي تماماً، غادة تضع
النقاط على الحروف وهي المحتشمة والأكثر دلالة والرقّة تطفر من عينيها.. بغتة يأتيها
تلفون، تملكنا الخوف بعد أن طالت المكالمة، حل المساء في سماء الخرطوم والتلفزيون
يعرض مباراة لكرة القدم بين تونس ونيجيريا، عدنا كل إلى داره قلقين خوف الهجران..
الفقد والفراق.

غادة الرصينة والمهيبية جاءت هادئة في اليوم التالي، حكيت لها عن كيف أنني تجرأت
وناديتها من وسط زملائها، خالفت النمط المتعارف، هي أحبت ذلك دون تحفظ وصارت
تلتقينا كلما سنحت لها الفرصة، لم تنزعج البراقة، تعلقنا بها، اقتحمنا حياتها وأضحت
تبعث في كيائنا دفئاً وحميمية لها ما يبررها، صرنا ننتظرها دون عتاب.

في يوم أخرجت لي قصتي القديمة التي أهديتها لها، كانت تخبئها في حرص داخل
حقيبتها الموشاة، لم أخف اندهاشي كطفل كبير، أخفيت ارتباكي، فيض من المشاعر
غمرني، طمأننتني بإيماءة وها أنا أخلد ذكرياتي معها في سرد أحداث.

اندهشت غادة وهي مأخوذة بعاطفتنا تجاهها، تملكها شعور مبهم بالفخر، لقد وهبتنا الهناء
وهي الاستثنائية تعرف متى تعزف اللحن بمهارة ناعمة وصرنا مدى الحياة. ببساطة غادة فتاة
من طراز فريد لا يشبهها أحد، والآن نحن بهذا الامتلاء صرنا نتجاوز باستمتاع منقطع
النظير، لم نكتف أو نرتو، ثملنا بهذا الألق، هذه السعادة المفعمة بندى الروح والفرح الذي
يختزل لحظاتها، إننا محظوظون لدرجة الجنون، وهانذا أكتب بلغة أخرى لا تأويل فيها بكل
الوعي ودورات البهاء.

وغادة تتواطأ معنا دون تشتت، تبعد المنافسين بموضوعية وتقدم الدليل وهي سعيدة.

الامتحان

صمت وسكون يخيم على الفصل، هدوء يصيب أكثر القلوب صلابة، برهة مبالغته.. ضربات

القلب تبدأ في الوجيف.. الخوف يزحف بطيئاً على الأفئدة المتوجسة، المسافات

المتباعدة، الأجسام النحيلة التي أضناها السهر، الوجوه منكبة على أجوبة الامتحان.

المراقب ذو العدسات اللاصقة الكث يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وقع خطواته مع أرضية الغرفة

يعطي نغماً متفرداً، عصفور صغير يغرد خلف النافذة ينعم بالحرية والانطلاق. أغصان

الشجرة اليانعة تتراقص مع هبات الرياح وتغريد العصفور الشجي، تزداد الحرارة بالداخل

وتشتد، تفصد العرق من أعالي جبيني شلالات أنهار ممتدة. ورقة الأسئلة تعمها الأحرف
السوداء كديب النمل، رموز وإشارات عصية، تأتي الكلمات وتبتعد كأني أراها أول مرة،
غريبة هي وباردة كقطع من الثلج، ورقة الأجوبة بيضاء كقمة جبال الألب. سراب لا متناه
من الضمادات وأقراص الأسبرين والطباشير الناصع البياض، فتى قرب النافذة يئن يتنحج
يصدر همسات مبتورة، يأتي رجع الصدر بعيداً كأنه من أغوار سحيقة، اهترأت ثيابي من
الجلوس على مقاعد الدرس والتحصيل، كل حصاد الأيام سهر الليالي وارتشاف الشاي
الدفئ أواخر الليل. المراقب يختال في مشيته كالتأؤوس في غابة من الأبنوس، وقع مشيته
يدق في القلوب، وقعها مع صدى الخطوات إيقاع إفريقي ساخن، طبول في رأسي تدق
أزيزها يخلق رجفة في أوصالي كلها.

نعيم الدنيا

يريدون أن يحولوا الوطن إلى بلد من المتمتتين والأصوليين. همست لنعيم الذي رفع إلي نظرة متشرد بئس وابتسامة خجولة تملأ وجهه الصغير. كان الأسي والشحوب باديين عليه وكثير من الخوف والقلق. ازداد توتراً في الأيام الأخيرة، شعر أنه مستهدف، لم يجد عملاً حيث إنه ليس لديه أقارب من ذوي النفوذ أو السلطة، الآن كل شيء صار بالواسطة والمحسوبة، شيء يدعو للفرع، صفوف الغاز والبنزين وندرة السلع الأساسية، ققط سمان تم اصطيادها.

كان نعيم يحب دراسة الأدب ويميل للشعر ويكتب القصص التي لا يقرأها أحد. كان
نعومي شاباً يافعاً يحب الوحدة والسهر، يقضي الليل كله وهو يقرأ الروايات، لا يحب
الفتيات ذوات التنورات القصيرة، ولكنه ناقد بصير، يرسل تشخيصاته للرواية الجيدة والتافهة
على حد سواء. كان يرى أن العالم قذر والكون معكوس يسوده الأرزال، كان يعتقد أنه
داخل سجن كبير والبدن من أن يخرج إلى أرض الله الواسعة.

نعيم الآن في حالة تصوف وانعزال تام، كان صارماً ومتوحداً يخافه كل من يلتقيه بسبب
هيئته الجادة، طويل القامة ونحيف كمصارع كاراتيه، وبنظرة حاملة وعميقة يسير حياته.
تعرفت عليه إثر خلاف في الرؤى عميق، وجدته مع أستاذه محسن، تعاطفت معه عندما
حكى لي ظروفه القاسية، لم يجد كثيراً من الحنان من أساتذة غليظي القلب ولا من أسرة
تسفه أحلامه، ورغم ملامحه الجامدة إلا أنه طيب القلب ومسامح ودمت المعشر حاد
الذكاء وعملي، يهتم بالعالم الحقيقي، عميق ومؤثر لكنه بدون عاطفة أناني انتهازي ويحب
المال. لتكون مبدعاً البدن من ذوق عال وكثير من الاندفاع والمحبة. يكره نعيم الأحكام
المسبقة وتقويم من لا يدرون، عاش طفولة ضائعة وبائسة وشباباً مفقوداً. كان شغوفاً
بالكتب ومولعاً بالروايات، جدية نعيم، صرامته نظراته الثاقبة لم تنقذه من براثن أب قاسي

القلب أرسل إليه وابلا من الكلمات قلبت حياته رأساً على عقب، ولكنه مع مرور الأيام صار معتدلاً ومقيداً بالأسف. كان نعيم يعد نفسه دائماً على صواب رغم أنه نسخة من والده، إلا أن معلمه محسن كان يعتقد بأنه متخلف عقلياً. والد نعيم سلفي حتى الثمالة، شكل بذرة نعيم فصار كتلة من البرود والجفاء والصلابة، والأيام تسير من سيئ أسوأ، رغم أن هناك شعاعاً من الأمل يطل من كون خلف الأكمة على تخوم الحلم.

العاصمة الخرطوم

العاصمة أضحت مرتعاً للشائعات والعشوائيات، طلبة الجامعات استخرجوا جوازات سفر أجل الهجرة، رغم أن البلد غنية لكنهم يطلبون الثراء في الغربة. وكذلك المزارعون والرعاة وأساتذة الجامعات وأطباء، كثير من الحكماء أصابهم القلق. النافذون لم يستطيعوا إدارة موارد البلد بكفاءة، شيء خطير يحدث، البعض اعتبرها هواجس، والبعض يؤمن بنظرية المؤامرة. وحدها أم دقيرشوم تضحك بأسنان مكسرة مائلة للون البني بفعل شرب القهوة،

وتقول إنها لن تغادر منزلها إلا جثة هامدة. منزلها غرفة وحيدة من الجالوص الذي تأكل بفعل المطر، خمسون جنيهاً في اليوم لا تعيل أسرة قال إبراهيم زوجها، وهو يضرب على الحمار حاثاً إياه على المسير، ما الذي حدث؟ غلاء فاحش وفساد مستشر وعدم تصرف أوصل هذه البلدة الطيبة بناسها البسطاء لحافة الهاوية ومنتهى الجنون. ساد البلهاء فانزوى ذوو الضمائر الحية والعقلاء، وحلت المصيبة، الكل في انتظار دوي الكارثة. دعوات العصيان المدني ومقاطعة شراء اللحوم تمت بحياء وراحت هباء، جرائم طالت بائعي الدولارات والمخدرات. فتيات الهوى ومزورو العملة، مؤسسات تحترق أن فيها رائحة فساد ويقولون إنها بفعل ماس كهربائي رغم أن الكهرباء دائماً مقطوعة، والشمس ترسل حمماً من الحر على الرؤوس المتعبة، الكل يود المغادرة، اكتظ المطار عن آخره بالمسافرين والراجلين عبر النوافذ البرية. أسر استقرت بمصر أن بها العلاج والتعليم والكهرباء وغاز الطبخ والمواصلات متوفرة. كبار السن أيضاً استخرجوا جوازات سفر لمصر أو السعودية أو حتى لندن، وآخرون يتابعون كأس العالم كنوع من الهروب وأحلام اليقظة. المصيبة قادمة لا شك، والكل يترقبها، عندما تصاب بالخوف تتوقف رجلاك عن المسير. كابوس يخيم على

الوطن، هل صدق الناس ما قاله بلة، أم أنهم مع أم دقيرشوم ينتظرون أن تسقط السماء عليهم مطراً.

واكتملت اللوحة

المدينة الجميلة مصابة بالارتياب، أحيائها تتوجس من الوافدين، يحتضنها النهر إلا أنها تبدو مشحونة بالأسى، الحب فيها يتسلل من الطرقات، شروخ المباني الآيلة للسقوط. مدينة المطر وألوان قوس قزح والحب المأخوذ خلسة والذاكرة المعطوبة. يجهز العشاء

والسماء مليئة بالسحب المنتورة كالعهن، وفراشات يحملن ويرتشفن الرحيق، سوسن تناديه

أن يناولها المنشفة، بهية ومليئة بالتوهج والتوحش، تزوجها فصارت الشوشات مبهجة

والحديث له طعم القرنفل، وصارت حياتهما كصباح خريفي ممطر.

في أحد المساءات دوى الرعد وبرقت البروق ونزل المطر مداراراً، سوسن تحب المطر

والأرض المبللة بالماء والعشب، وهي معه تحلق روحها في البعيد، الحياة معه شهية وهو

يأتي ويعود، وسوسن تبدو خواطرها عارية، وأشعة الشمس تلوح حزينة، نهضت، قامتها

كالنخيل، صباها اليانع وساقاها الجميلتان.

حل يوم جديد وهما في الحديقة العامة يحتسيان القهوة، الناس هم الناس مندلقون، تعابير

وجوههم المموهة ومجدي عقلت نياقه، تذكر زيد الموج وعشق الماء للرمال والشواطئ

الدافئة وشعر بالأسى، البد أن يغادر هذه الديار حيث الأرض صارت لا تعطي وجفت

الينابيع، ألم به وصار طائراً يحلق بلا اتجاه، مجدي غاص في حقل غيوم إنها المرة الأولى،

استعاد تجاربه في التمسك وعدم ركونه للفشل والمدينة الكبيرة وهذا الهواء الحار، كيف

التقى بسوسن ولياليهما الرائعة معاً، وهذا الزمان الذي لا يكاد يصفو، أيرجع الأيام للوراء

وينطلق المجهول والاختراقات والشتات الحاد، يصاب بلوثة من الجنون التغيير والقناعات الجديدة وهذا القهر، إنك تحلم، الوهم الكبير والآمال التي بدأت والتأرجحات.

هذه أيامنا وطارت العصافير تحلم بغد موشح بالإشراق. سوسن لا تعرف أن الزمن يمضي وأن السعادة نائية وهو تعس لهذا الحال، هناك حيث للفاكهة طعم آخر وللنساء واللغة، ولمته الأرصفة والمقاهي والشوارع بأذرعها، كالأخطبوط انقبض قلبه، الغرفة القديمة بستائرهما الموشاة ولوحات على الجدار، ورود في الفناء، إنه متصلح مع هذا المكان، كيف يفارقه وسوسن والموسيقى وعيناها غابة السنط، حديثها العذب وحبها للحياة، سيسافر ويعود ولكن ما بال هذه الأبواب موصدة، وبدأ يرسم، الصدر الشامخ، الأنف المستقيم، العيون والخذ الأسلان، إنها تفاصيل سوسن، كرمح مصوب صارت تسأله ألم يحن وقت الذهاب، فالسفر والغياب، صارت اللوحة أكثر صفاء، حدقت فيه، طعم الفاكهة، تمرغ في الشهد صار يقطف رطباً جنياً. واستدارات الأيام كهيئتها مع الزمان والمكان واكتملت اللوحة.

أبو جنزير

المدينة الإسمنتية زحفت إلى جواره وطوقته، كلما أرادوا أن يمهدوا عليه شارعاً عجزوا، وهكذا دارت الأيام. يحاصرونه فيقاومهم، ريح الشتاء تهب باردة، والمسؤولون يلهثون،

يمسحون أحذيتهم اللامعة، يهمسون لبعضهم وتتحرك الجرارات بأزيها كالمطارق. تنتصب

الذكريات المرة، تتهادى الرغبة في التحطيم، ولكن يخمد كل شيء.

عبدالباسط هناك كأن سكاكينا تنغرز في صدره، وجوههم العريضة كنبات العشر، رئيس

البلدية برأسه الضخم وكتفيه العريضين يصدر أوامر بدك الضريح. الشرطة مدججة بالسلاح

تتحفز، سائقو اللودرات تخشبت أياديهم، نظرة رئيس البلدية المشجعة تحثهم، تنكسر أسنة

الجرارات وتقف ساكنة، الحزن في الحدقات، انكفأت الفرحة المكتومة، تحولت إلى يأس

وخوار عزيمة. رابح يدون المشهد وروحه تشتعل، أحدهم يشعل سيجارة ويأتي بجرارات

جديدة وتبدأ المحاولة. رئيس البلدية أضحى وجهه كقرص الشمس مفجوعاً، يزعق فيهم أن

يستمرؤا. رابح يدون يعجزون عن فك سلاسل جنزيره، أحدهم يقترب منه محاولاً أن يقرأ

ماذا كتب، شوه لحظات استغراقه.

المهندسون مطالبون بكتابة تقرير، يضحك الحاج بهستيريا وكأن ريحاً تسكنه، يوقفونه

يسألونه عن سبب ضحكه الذي أغضب المهندسين ورئيس البلدية وعمال الحفر. صمته

أصابهم بالرعب، لفتح وجوههم ذهوله، في اليوم التالي كثر عدد الناس وجرارات صفراء تعمل

على الجوار بهمة كالحريق، تخشى أن ترجع خائبة كما جاءت.

عبد الباسط يرى الشك في عيونهم وخيوط الغضب، كثر الهمس، ازدادت التساؤلات

وطالت بقدر الهم المزروع في مساحات الحزن. غُسلت وجوههم بالوجع، يجتمع

المسؤولون ويقررون أن يستأنفوا غداً. على غير العادة أطلق عبدالباسط صيحة فرح معبقة

بالأمل، زغردت النساء وإن كان البعض يأكلهم القلق.

الحيرة وآهات جارفة للرغبة في معرفة إلى ماذا سيؤدي هذا التحدي، احتشد الناس في اليوم

بعدد كبير رغم تحذيرات الشرطة، اللودرات مرتكزة على القرب والأشجار كأنها تنشج بدمع

ثخين.

قال عبدالباسط إن الإنجليز قد قتلوه هنا حيث كان مناظلاً جسوراً لا يشق له غبار، وقف

على مبادئه ولم يتزحزح، رابع أردف قائلاً إنهم أتوا به والسلاسل تكبله على يديه ورجليه.

كان الناس يحبونه وكانت نظراته تثقب الأفق، أربع جلاديه؛ لذلك قيده وهو المتمنطق

بالإيمان.

شجاعته تبعث حرائق من عينيه، التقارير تقول إنه ضد السلطة ويؤلب عليها الرعاع وشذاذ

الآفاق، وجوده أصبح خطراً عليها.

الحاج أطرق هنيهة ثم قال: أدخل فيهم الخوف وما زال، إنه ولي من أولياء الله الصالحين.
أردف عبدالباسط أنه قطب من أقطاب الكون، هنا أقيمت المشنقة، تم شنقه ومرت أيام
كالعلم يتحدث الناس عن الظالم والظلم ولا يفعلون شيئاً، والطغاة تتألق عيونهم وعلى
شفاهم ابتسامات الرضا.

عشر عند عبدالباسط على منشورات، مثلثات ومربعات وأرقام ورموز، قبض عليه، أثقلوا يديه
بالحديد، ألهبهم بنظرات حارقة، لم ينكر، ناقشوه كثيراً، عذبه أكثر، لكنه لم يلن، كانت
ثقتة تزداد كل يوم، حاولوا معه بشتى السبل، وعدوه بالمال الوفير الجاه والسلطة، وأخيراً
قالوا إنه قد جن وأنه خطر على الناس، تمت معالجته، أطلق سراحه وإن ظلوا يراقبونه،
البعض صار لا يقترب منه وآخرون تتسلل منهم لغة الحب، من العيون والأكف والهمسات
العابرة التي تتمم بها الشفاء، وإن كان أحباؤه يلتقونه ليلاً.

بعد زمن طويل جاءت لودرات أمريكية ضخمة مسحت الفناء حول الضريح، جعلته
حدائق غناء وأشجاراً وارفة الظلال، قبة ومسجد. وفي ذات يوم جاء عبدالباسط والحاج
ورابح وصلوا فيه العشاء، ارتشفوا عبير نكهة المكان، وقبل شروق الشمس ذهبوا، تلاشوا
كغرباء في حشد.

كتراية العظمة

كتراية قرية منسية في مجاهل ذلك الجزء من الوطن، كتراية تقع وسط نبقاية والسدير. كان

البدو يسكنون خلف تلال القيزان الرملية المرتفعة، حتى إذا جاءت خيول العسكر التركية

لجمع الجباية والإتاوات والدقنية يرونهم من أعلى التل، فيختفون في الغابات المجاورة. كانوا يتمنون أن تظهر معجزة تزيح عنهم المعاناة، وكانوا يقولون: "مئة رجل في تربة ولا ريال في طلبة". وهنا ظهر اسم المنتظر على صفق الشجر وقشر البيض، تفاءلوا خيراً. المطر ينزل بالبرد والسمك، وكانت ظلال أشجار السنط تستطيل من عد أم دهيسيرة حتى مشارف كترية العظمة. تلك أيام لها طعم الشهد، لا شيء يقض المضاجع، والأيام تسير هنيئة بالناس والأشياء والأغنام وهي ترضع صغارها، وأصوات الحمير والأبقار والكلاب كأنها سمفونية تعزف أجمل الألحان، الناس يزرعون الفول والسّمسم والذرة، تجدهم جميعاً في الأعراس والمآتم يجتمعون مساء للعشاء في الضرا، وفي المساء يجتمعون في دكان حاج أحمد حيث المذيع الوحيد، يستمعون لوردي وعثمان حسين وإبراهيم عوض وهنا أمدرمان. إبراهيم عبدالله يحكي عن الحياة بحكمة ويدلق كثيراً من النظريات، الخال عبدالرحمن يحكي عن درة مربط خيلنا، وعن بطولات المهديّة التي لا تنتهي، يضحك وهو يحكي عن خزان مكوار وعن فرح ود تكتوك ويوسف أبو شرا ومخاضة أبوزيد الهلالي على مشارف الخواجة كوستا. القطار يمر من هنا في طريقه للغرب. فاطمة كقصب السكر تملأ حياتنا بهجة وهناء، نذهب معاً لرعي الماشية والأغنام، وجلب الستيب وأم بانقيقا والحنبك

والصمغ، وصيد العصافير الصغيرة. الإمام والسيد وموسى يصطادون الأرناب البرية وطيور القطا مع كلبهم، نجوم السماء كأنها ثقوب في ثوب موسى بالناس، العطر والأحلام وأصوات وشوشة الهواء. قال إبراهيم عبدالله: خذوا من البنات فرش التسريح أنهن يتشبهن ببنات المدن. وتصدى السيد للمهمة. يحبون الدوبيت والألغاز والأشعار والأناشيد والراتب، وعند الأفراح تجد موسى بربابته دائماً في المقدمة يحمل سوط العنج، مع خليل الذي يختال كطاؤوس بطاقيته الحرير، إمام حسن يستمع لإذاعة لندن باستمرار، يحمل مذياعه ويحلل الوضع الراهن ويستقرئ المستقبل، وهو بمزرعته يحرث الأرض ويضع البذور والتيراب بعد أن يستعمل السلوكة. العام كله يعملون، في الصيف يستعدون للخريف بحرث الأرض، وفي الشتاء يرحلون لجني القطن في أم هانئ، وطق شجر الطلح والهشاب لحصاد الصمغ. في الدرت شهر نوفمبر تعقد الزيجات الجديدة، ذكريات المواسم لا تنتهي، يملؤون اللواري بجوات السمس والبقول والذرة، تجدهم يجتهدون في زراعة اللوبيا والباميا سارا والبطيخ والدرقو والعنكوليب. قصب الذرة يترك في زريبة كبيرة علفاً للمواشي، تحصل الخلفات أحياناً في حدود الأراضي الزراعية أو إذا أكلت الأبقار المزارع.

كتراية العظمة حيث تحتشد آلاف الصور عن الحب والكراهية والاعوجاج، البهائم والحقول
والمزارع وهذا الكرم الفياض، شجرة الحضرة والللوب والنبق والفريك، شهر يونيو ورائحة
الدعاش والعشب النابت، شوقارة، ولسان الطير والتمليكة أم سليلو والتبر، والقطارت تطلق
صافراتها وأبقار ترعى، لوحة من المناظر الخالصة. الأشجار والحشائش ورائحة برم الطلح
وأفراخ الطيور بدأت تتعلم الطيران، كان البد من الوداع. لحظات النشوة الحقيقية أن تكون
هناك، حيث كتراية العظمة، الإحساس بالسنوات الزاهية في بحر علوم. وتعود للضحيج،
أيام مثمرة كطماطم الله كريم. لا بد إذن من العودة لتنصت بعمق لتلك الأصداء، وتستشق
الروائح العطرة لتستعيد مزيداً من النقاء والتوازن.

ذكرى عامرة بالشوق للقاء نهى

الرجال غادون ورائحون بملابسهم متفاوتة البياض، السوق عامر بالأشياء والناس، الشمس
تأذن بالمغيب والطقس غائم ولا هواء، التقيتها تتسكع في المحلات التجارية الفارحة،
تضحك بأسنان كالمشط ناصعة مع رفيق لها، كنت خالي البال، قررت أن أتابعها مرة من
بعيد وتارة عن قرب، وهي أمامي تتمايل كموجات الهواء المتتالية على عشب عميق
الخضرة، ومرة آتي من الاتجاه الآخر ألقى نظرة عجلى، أكرر المجيء والذهاب حتى أرسخ
في ذهنها المترف، لم تسعني الفرحة ذلك اليوم عندما تألقت نظراتنا في المنتصف، ذهلت
وأنا أتأملها عن قرب، هممت أن أعانقها شوقاً وألفة، قسامتها الهادئة، وجهها المألوف،
شبابها الغض الرائع، كأنني أعرفها منذ زمن بعيد، نسمات هواء بارد تبدد حبات العرق
المتكون على جبيني المجهد، منذ اكفهر الحال في منزلي وأنا أهيم على نفسي كصوفي
متشرد.

أشعر بالكآبة من سكن منزل كهذا، كل أمل فيه خواء، تعلقني بلعاب العنكبوت أورثني أمراً
مقرفاً سيطر على جسدي، نهش العقارب الجارف، اهتززت بعنف فتقيأت سائلاً رمادياً
هلامي الملمس، الحمى تعم أعضائي كلها، يئست من إصلاح هذا الحال، أضحت الأمور
في منزلنا لا تطاق، فقدت ذرات الفرح وهجها المتدفق، وصار الأمل يترنح على ضربات

الفؤوس الصدئة، ما زلت تمارسين القدرة على إخفاء مشاعرك تجاهي والناس، حتى كنت أول المصدقين بك رغم معرفتي بأن ما بيننا فوق التمثيل. هؤلاء الأنانيون الساذجون أنا أرفضهم، اقدفيهم في أتون دمعك الحار ليحرق أطرافهم الحادة، ولكن لا تجعليني أصدق جفاءك وصدك، حتى لا تحملني صحراواتك إلى متاهات جفاف يحرق كل أمل أخضر كنا قد زرعناه سوياً، رفقاً بروحك ونضالي عبر السنوات من الانهيار، كوني صافية الضمير حتى نخط سيرة عميقة الجذور.

لملمت بقايا قلبي المكلوم ورحت في دنيا مليئة بالسهول الخضراء أستنشق هواءً عليلًا، من بعيد تتراءى لي فتاة السوق الجميلة، نهى صبية في ربيعها السادس عشر، صافية كبدر اكتمل، كالقمح كان لونها، جسدها الفتى النامي، شعرها الكثيف المسترسل، وصدرها الناهد، استقبلتني بتبشار وافر، وسرنا الساعات الطوال في الوادي القفر، نحكي حديث الصدق والبراءة لحظة أن فاجأتني بأنني غاضب حتى الطفح، حدثتها عن العقارب التي تنهشني ليال، وعن مريم التي ما فتأت تبث سمومها علينا، وعن طيف عشيقتي التي هربت منها لمواقفها الهزيلة، حيث ما زالت تتأرجح بين أن تسعد نفسها أو ترضي الآخرين، بكت نهى حتى خشيت على قلبها الصغير من التصدع، حاولت ونحن في خطوات أن أخرجها

من رمادية موقفي اليأس، تحدثنا عن المغنية التي ملأت ساحة الغناء أخيراً، وعن غلاء
الأسعار والانهيال الاقتصادي، وآخر قصيدة تحكي عن الحب والود والتصوف. رمقتني
بلحظ فنت أشياءي كلها، ودعتني بيد ناعمة على أمل اللقاء، هذا العام سيكون القرار نافذاً
استتصلاً للداء اللعين حتى ترتاح جوانح هزها الأرق، وجفون تهدلت من جراء الدمع
الहतون، لا أرضى لزورقي أن يتيه دون مرفأ كطائر البطريق الذي فقد سربه، يهديه عشقه للماء
نحو البحر وإن طال السفر، سأواصل العبور للمرافئ البعيدة، لحظتها سأنفك من صحرائك
إلى الأبد، سأودع السراب وأطلق الجفاف إلى الرواء، سأداعب آخر خيوط العنكبوت
الملتفة حولي، أعالجهها بروية راكضاً نحو البعيد، وسيأتي الطوفان قاضياً على كل شيء،
حيث تنزوي العقارب السامة وينمحي العار والسائل الرمادي والأنانيون الساذجون أبداً.
ستهلدين أجفاني المسهدة وتشعرين بالاطمئنان، تنامين هادية البال، وسأظل أبحث عن
الآمال العراض وماء البحر وصبايا كالفرشات الملونة، لهن القدرة على إظهار مشاعرهن
الطيبة تجاهي والناس.

صرت أتسكع في السوق أرتاد حلقات الذكر، أتأمل وجوه الناس والصبية الذين يتنادون على
الصحف الصادرة صباح اليوم، في تقاطعات الطرق وعند إشارات المرور، والنساء اللاتي

يصنعن الشاي على قارعة الطريق، عدت إلى المنزل مكسور الفؤاد علي أنعم بشيء من
الراحة، وجدت مزيداً من النكد في انتظاري، ارتشفت كوب الحليب البارد ورحت أظهار
بالنوم، استعجل الليل الطويل أن ينقضي وفي خاطر ذكرى عامرة بالشوق للقاء نهى.

الحب في زمن العتمة

علي كالقط ينظر إلي كأنه يقرأ الكف، كنت أشعر بالارتياح معه وهو يحدثني عن هذا الحراك بوله. انتبهت إلى أنه ينتظر أروى، وأن روحه العاشقة تمتلئ بقصص لا تنتهي يحفظها عن ظهر قلب عن الصبايا المتحمسات، والفتيان المليئين بالجموح الذين أعطوا العالم الطاقة والحياة والمعنى. نصحته بتجنب الشوارع الرئيسة وهو يبتسم دوماً ويتحدث بلهجة محببة من الإمالة.

علي فتى يتيم توفيت والدته بعد مرض لم يمهلها إلا قليلاً، والده يشتغل بالتجارة والسياسة، حدثني عن أروى حببته ولم يكن محبباً، كان يقضي الليل كله في الاتصال الهاتفي بها، يحب علي طرق المطر على الأسطح، وعمل ألعاب من الكرتون ورسومات فنية معبرة، كنت أقدم له بعض الهدايا البسيطة: ساعة يد أو قارورة عطر وغطاء للهاتف الجوال، كنت لا أطلب منه مقابلاً على ذلك سوى الصداقة، والوعد على أن تظل صداقتنا دائمة. يحب علي اللون الأخضر والفتيات اليانعات والحنان، يكره الوحدة، وعندما كنا نجلس في المحطة كنت أنظر إلى عينيه أتأكد من أنه ما زال صاخباً يدعو للتغيير.

علي لم يتجاوز السبعة عشر عاماً ولكنه رزين وعاقل ولا يحب الحياة الرتيبة ولا فتات الحنان. وجدته ذات يوم واقفاً أمام محل لبيع الفضة يريد خاتماً خلف زجاج المحل، كان يريد شراءه ولكن المصرف لا يعطيك ما تريد من نقود، علي لا يحب الحماقات ولا إنفاق المال في غير محله، كان يشعر بسعادة غامرة كلما التقينا، حدثني عن أروى وهو في كامل أناقته، شعرها الذي يحيط بها وسواد عينيها وحاجباها المقرونان، حدثني عنها كثيراً، ابتسامتها العذبة وحديثها الجذاب، ولكنني أحس بأن قلبه يؤلمه، قلت له إن هذه أجمل سنوات العمر "لا تبعزقها" وإن "زهجت" من هذه المدينة الممسوسة اذهب للبلد وانس كل شيء.

كان يقول لي: عندما أنظر إلى عينيها أفهم كل شيء، كان نحيفاً وسيماً وشاحباً كلما أتى من مسيرة، كان يخاف أن تنتكس تلك الانتفاضة وأن يطرده والده إن علم بمشاركاته التي لا يعرفها سوى أصحابه وأروى.

كان علي يقول علينا أن نقوم بما هو نافع أولاً كي نستحق النقود، حدثني عن طموحاته في الدراسة والعمل والزواج، كان علي كالضوء الذي يعري الأشياء، يقص علي أشياء صغيرة ودافئة وذات معنى، ذات يوم وبينما كنا نتحدث في الساحة أفهمني أنه ما زال بذلك

الشغف، رغم وحدته إلا أنه يعلق على الحياة آمالاً، أصبحنا صديقين بفعل الإحباط، كان
عندما يتحدث عن أروى ولحظاته معها، تشتعل عيناه بالوله الذي يلمع وامضاً بالحب،
قال: لن أتخلى عنها أبداً خاصة أن دمائنا قد امتزجت معاً.

إصرار وترصد

كان كل ما يبدر عنك من أفعال يشي بنشوة الحماس الدفاق التي كانت تلمع في قلبك
كما لو كنت طفلاً غضا طري الإهاب، تفتتح مقلتك على مسرات الحياة اللاذعة ولذتها
ومباهجها، لأول مرة تحس بموجة فرح وسرور تغمر كيائك كله وتطير بك إلى شواطئ
السعادة. كانت كل أفعالك تشع بحماس الصوفي الذي تشتعل جوارحه بأنوار مقدسة.
صفت الأيام من شوائب الكدر والروتين، ومضت اتجاهك مترققة بالسعد والفأل الحسن
والإقبال. كانت أيامك كبقايا لحن قديم تعلقت مقاطع منه بالذاكرة، هل كان حبك
لسلوى عبد الجبار هشاً لتصاب بهذا البرود؟ كنت ساذجا عندما اعتقدت أنك سعيد، صار
كل شيء معقدا بشكل رهيب، أسقطت سلوى عبد الجبار حملها بعد حملها لصفحة ماء
بحجة أنك غير فعال. تحل المصيبة دائما حيثما لا تتوقعها، مثل وغد متربص في ركن مظلم

وعلى يده سكين، وأد همام أخ سلوى لحظات الشجن، كعنكبوت أسود سام يجلب الهم،
الفقر والتعاسة همام. اعترضت سبيلك المأساة حيث اتهمت بغير دليل، لم تنتصر قط في
جدال مع وفد ملتجٍ، مهما كان ما ستقوله فلن يغير من نظرتهم شيئاً، وهكذا لزمتم
الصمت، بدا همام المتغطرس كشاعر جفت موهبته، وذهبت أنت بعيداً عن كل شيء
يجعلك تتذكر أرض الخراب وسكانها المتاعيس البؤساء، وذاك القحط واليباب. همام الوقح
لم يشف قلبه المتحجر من الأشياء ويساعده في دق الطار وتحميس الطبل أخيه حمادة
الخلافة، حمادة الكسيح ذهب بك إلى شيخ في السبعين ليرقيك، وهمام الباهت ولج
دهاليز ابن إدريس الساحر المعروف بمعالجته لتلك الحالات. من جانبها سلوى عبدالجبار
جلست في كرسيها العاجي ككبيرة قوم سبأ تراقب مجرى العمليات بتؤدة، وفي وجهها
ابتسامة صفراء، وصرت أنت تتابع تميمة معلقة برقبة طائر محلق في الفضاء الأزرق العريض.
رحت من زبالة لأخرى تبحث عن طفل وسيم جميل القسمات لم ير النور قط، وغرقت في
توهان من الجنون والعزلة، حينها كان نسيم الليل في حي تسعة وعشرين بارداً، حيث يحلو
للدموع أن تسيل. كان كل شيء يبدو متعاوناً معك، شجرة النيم الصغيرة، وهدوء شجرة
المورنقا، وزهرة الجهنمية التي على الباب، وتلك العصافير التي كانت تزقزق.